إيمانويل روبلس

مونيرا

ترجمة سليم طوسون

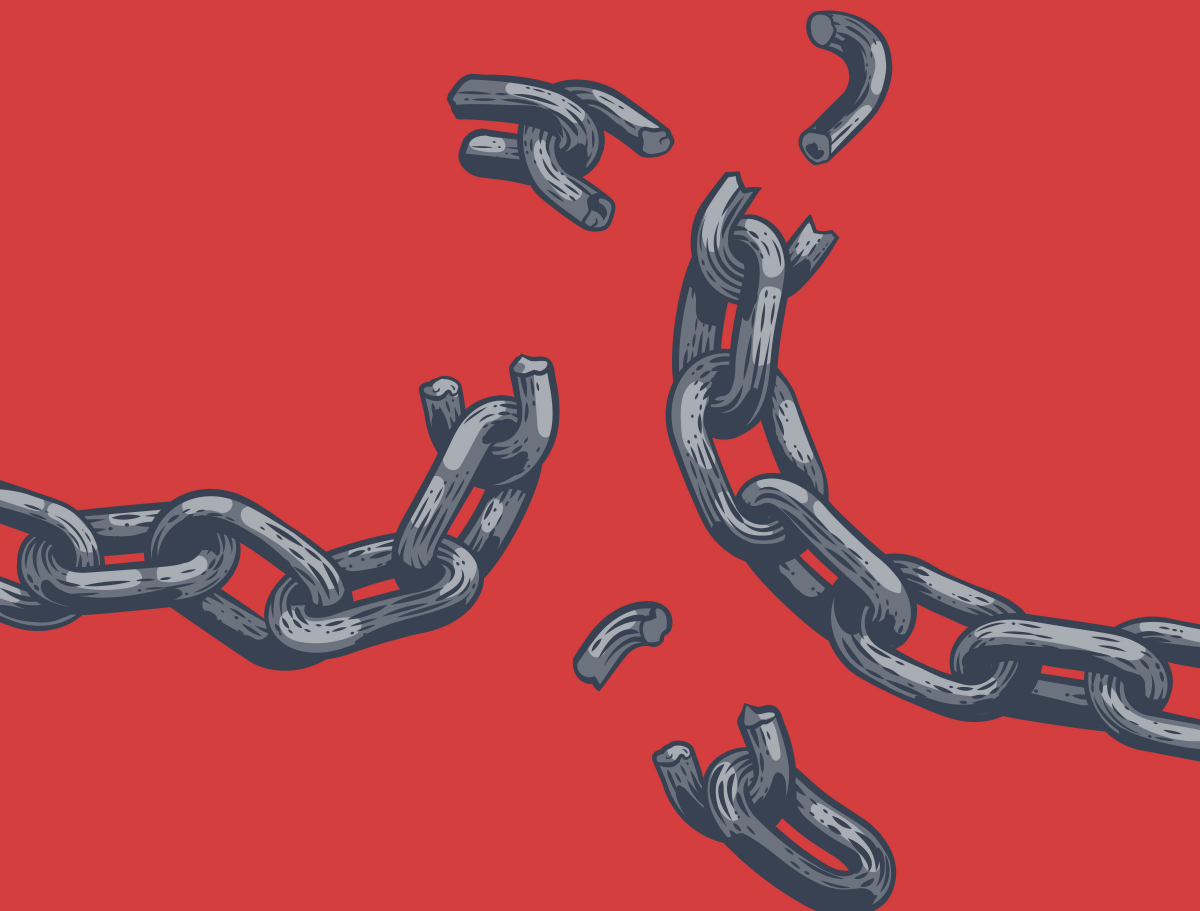

مونسيرا

تأليف
إيمانويل روبلس

ترجمة
حليم طوسون

هنـــداوي

مونسيرا

إيمانويل روبلس

MONSERAT

Emmanuel Roblès

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٣٥٣٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٩٤٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ حليم طوسون.

المحتويات

الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	٢٩
الفصل الثالث	٤٣

شخصيات المسرحية حسب ترتيب ظهورها على المسرح

Zuazola	زوازولا
Morales	مورالس
Antonanzas	أنتونانزس
Izquierdo	إزكويردو
Le Pere Coronil	الأب كورونيل
Monserrat	مونسيرا
Le Potier	الفخراني
Le Marchand	التاجر
Un Soldat	جندي
La Mere	الأم
Le Commedien	الممثل
Ricardo	ريكاردو
Un Soldat	جندي آخر
Un Moine	راهب

الفصل الأول

المشهد الأول

(زوازولا – مورالس – أنتونانزس)

(ضباط إسبانيون يتناقشون بحرارة، لا زالوا يرتدُون سترة الميدان الخشنة ذات اللون الأزرق الداكن، والسراويل الرمادية وأحذيةً برقبة.)

زوازولا: هرب مرةً أخرى.

مورالس: لا شكَّ أن هناك خيانة.

زوازولا: لقد أُخطر. هذا واضح، من الصعب أن أُصدِّق أنها مُجرَّد مصادفة.

أنتونانزس: بالطبع، يجب ألَّا تتوهَّم أنها مصادفة، لقد أُخطر! الحق أن إزكويردو كان مطمئنًّا أكثر من اللازم بالأمس عندما عرَض خطته على المائدة في حضور كل مدعوِّي الجنرال. إنه لَطيشٌ جنوني.

زوازولا: إزكويردو يكاد يُجنُّ من الغضب.

مورالس: هو المخطئ! للمرة الثانية يعتقد أن بوليفار وقع في قبضته ثُم يفلت من بين أصابعه. يجب على إزكويردو أن يتخذ مزيدًا من الاحتياطات.

زوازولا (بدقَّة)**:** هناك حقيقة مؤكدة، لقد أُخطر بوليفار في هذه الليلة بالذات وفي المنزل الذي لجأ إليه أن إزكويردو سيأتي في الفجر ليقبض عليه. ولم يُخطره سوى أحد المدعوِّين بالأمس. يوجد إذن خائن في هيئة أركان الحرب.

مورالس: بدأت أُومن بذلك أنا أيضًا. وعلى أي حال إذا نجح بوليفار في اجتياز خطوطنا فسيلحق بأنصاره ويجمعهم بسرعة.

أنتونانزس: آه! هذا يعني الحرب مرةً أخرى. بالله إني أُفضِّل الحرب، فإني أكاد أموت من الملل في هذا البلد الذي لا نرى فيه فتاةً واحدةً جميلة.

مورالس: أنت مُبالِغ. ألا توجد فتاةٌ واحدةٌ جميلة؟ عندما احتللنا مدينة سيكيسيك (Siquiseque) لم تترك فرقتنا أحياءً سوى تسعة عشر فردًا؛ تسع عشرة امرأة! شابات بالطبع! هذا مُخالف لأوامر القائد الذي أصرَّ على إبادة الكل، حتى المواليد. ولكنَّنا احتفظنا لأنفسنا بالجميلات. وأقسم لكم إن بعضهن أشبه بالآلهة.

زوازولا: بالطبع يُمكن أن تجد بعض ...

مورالس: لقد احتفظتُ لنفسي بواحدة. كانت في السادسة عشرة. رائعة. ثديين جميلين، دافنين مثل الزغاليل. كانت تبكي بصوتٍ خافِت على ...

زوازولا (ضاحكًا)**:** اسكت!

أنتونانزس: هل احتفظت بها؟

مورالس: لفترةٍ قصيرة؛ تركتها لخمسة من رجالي بعد معركة باركزيمتو (Barquesimeto) تقديرًا لحسن سلوكهم لم أكن أملك ما هو أفضل من ذلك.

زوازولا: خسارة!

مورالس (وهو يهزُّ كتفَيه)**:** أوه! خسارة ... إنها هندية.

أنتونانزس: كل هذا لا يُفيدنا في شيء عن فرار بوليفار الغريب! أريد أن أعرف كيف تمَّت هذه المسألة.

زوازولا: صبرًا! سنعرف كل شيء من إزكويردو. لقد رأيته منذ لحظات. لا شكَّ أنه سيمر من هنا ليُقدِّم تقريره لصاحب السعادة. من المؤكَّد أنه يكاد ينفجر من الغيظ!

مورالس: إزكويردو يعتقد أن الأمور تجري دائمًا كما يشتهي وأن الناس لا بُد أن يرضخوا لإرادته، وعندما تقف في سبيل مشروعاته إرادة غريبة يزمجر ويرعد ويريد أن يقضي على العالم بأسره، سترونه بعد لحظات: دوامة! عاصفة ترعد!

(يضحكون بصوتٍ مرتفع.)

أنتونانزس: عندما كنَّا طلبة في الكلية الحربية، أذكر أنه وقع في حب فيكوتيسة صغيرة في السابعة عشرة من عمرها. كانت لا تُحبه وأفهَمته ذلك، ولكن هذا الاعتراف لم يُبرد ناره؛ على العكس! لقد أقسم لها إنها ستحبه بالقوة! إنه سيجبرها على حبه ... (يضحكون) ولكنَّها تزوَّجت من وجيهٍ برتغالي تحدَّاه إزكويردو في مبارزة وكاد يقضي عليه. وقد نقلته السلطات العسكرية إلى هذه الأرض الملعونة لكي تبرد ناره. وينسى حبه الأول.

مورالس: ينسى، ينسى، لا أظن أنه من طراز الرجال الذين ينسون الهزيمة حتى بعد مرور عشرين عامًا.

أنتونانزس: أوافقك.

مورالس: وأعتقد أنه لن يغفر أبدًا لمن سخر منه هذا الصباح وأخطر بوليفار.

المشهد الثاني

(نفس الأشخاص – إزكويردو)

(يدخل إزكويردو في بداية الجملة قبل الأخيرة لمورالس. وجهه مُلتحٍ ويقطر حقدًا، قبعته مطوية تحت إبطه، وهو رجلٌ ضخم الجثة، تبدو عليه مظاهر القسوة، في مؤخرة حذائه ذي الرقبة مهاميز، ويصيح في الجملة الأخيرة لمورالس.)

إزكويردو: كفى! أرأيتني أغفر لأحد قبل ذلك؟ هل أبدو بمظهر الغبي الذي يُمكن أن يلين ويعفو؟ هه؟ أبدًا!

(ينظر إليهم في صمت، ثم يبتسم في سخرية تثير القلق.)

فشلي هذا الصباح يسعدكم ... أليس كذلك؟

أنتونانزس (بضيق)**:** إزكويردو!

إزكويردو (يهزُّ كتفيه)**:** نعم نعم ... رفاق سلاح قُدامى!

أنتونانزس (بتودُّد)**:** أنت مُتعب من هذه الحملة يا إزكويردو!

إزكويردو (ساخرًا)**:** نعم! أرجوك لا داعي لهذا العطف ... يجب أن أدخل على صاحب السعادة لأقدِّم له تقريري.

أنتونانزس: ألم ترَ الجنرال بعد؟ ... إنه لا يعلم حتى الآن.

إزكويردو: سأبلغه بمفاجأتين!

أنتونانزس: اثنتين؟ كيف كان ذلك؟

إزكويردو: الأولى: خبر فشلي. والثانية: اسم الرجل الذي سخر مني. (ينظر بازدراء إلى مورالس.) كما أحسنتَ التعبير منذ لحظات.

زوازولا: من هو؟ أنستطيع أن نعرف.

أنتونانزس: هل هو إسباني؟ ضابط من أركان الحرب؟

إزكويردو (ساخطًا)**:** كفى! لا أستطيع أن أقول لكم شيئًا. لا بد أن أصمت وأنتظر تعليمات صاحب السعادة.

(إزكويردو على وشك الخروج من الجانب الآخر وقبعته في يده ويبدو عليه الانشغال.)

زوازولا: قل لنا على الأقل ماذا حدث.

أنتونانزس: حقًّا. ليست لدينا أيَّة تفصيلات. وعلى كلٍّ لم يحضر بعد صاحبُ السعادة. لا زالت أمامك بضع دقائق.

(إزكويردو يعود ببطء وعلى وجهه آثار السُّبَّة التي يُريد أن ينتقم منها.)

إزكويردو: وصلنا في الفجر للمزرعة التي الْتجأ إليها بوليفار المريض حسب معلومات عيوننا، وقد أمرتُ بمحاصرة المساكن. وفتَّش رجالي في كل مكان، فراحوا يُبيدون ويحرقون كل شيء، وعندما داهمَت النيران أجران القمح خرج زنجيٌّ من تحت أكوام القش وهو يرتعد من الخوف، وقد رأى بعينَيه جُثث الآخرين في وسط الحوش فلم نكن في حاجة إلى جهودٍ كثيرة لكي يحكي لنا قصته الصغيرة. مع ذلك فقد ساعده على ذلك أحد جنودنا فراح يُداعب بطنه بطعنات خفيفة بالسونكي.

مورالس (ضاحكًا)**:** ما هي أهم أقواله؟

إزكويردو (بصوتٍ عالٍ، مُقطَّب الجبين)**:** أخطرَ أحدُهم بوليفار في منتصف الليل، كانت الحمَّى الشديدة تنتابه فوضعوه على حصانه وربطوه في السرج. أمَّا أين اختبأ؟ لا يعرف الزنجي أي شيء، ولذا فقد أمرت بشنقه (يُفكِّر) وحتى لو كان يعرف كنت سأشنقه بالطبع.

مورالس: هل أعطاك معلومات عن الشخص المجهول؟

إزكويردو: أعرفه.

مورالس: إسباني، أليس كذلك؟

إزكويردو: لا تُوجِّه لي أسئلة بهذا الصدد، أفهمتَ؟

مورالس: ما دمت تعرفه فستقبض عليه وتُرغمه على الكلام هو أيضًا؛ النمل الأحمر ... أو الرصاص المصهور في الآذان.

إزكويردو: خيالك محدود.

زوازولا: لا شك أن بوليفار لم يبتعد عن هنا كثيرًا.

إزكويردو: لا؛ سيظل بالطبع مختبِئًا في مكانٍ ما طالما كان الوقت نهارًا وسيواصل الفرار بالليل. وقد أرسلتُ عدة دوريات من الفرسان في الاتجاهَين اللذين يُمكن أن يأخذهما.

مورالس: لماذا اتجاهين؟

إزكويردو (بدقة)**:** إمَّا أن يتجه بوليفار هذه الليلة نحو بويلبا (Puelba) وينضم لأنصاره ويُحاول تجميعهم من جديد ليُلقي بهم في وجهنا، وإمَّا أن ينزل نحو الشاطئ ويُقلع إلى كوراسا (Curaçao) حيث يلتقي بأصدقائه الأعزاء ليُعالج نفسه وينسى جنوده القردة ومشاريعه الجنونية.

زوازولا: أتعتقد جديًّا أن خسائره من الضخامة حتى إنه يئس وتخلَّى.

إزكويردو (حانقًا)**:** لا أعتقد أي شيء. أمامه أحد حلَّين؛ إمَّا بويلبا أو كوراساو. إمَّا الغرب أو الشاطئ. وقد أصدرتُ أوامري بتفتيش كل الأماكن وخصوصًا في هذين الاتجاهَين، ولكنكما استوقفتماني أكثر من اللازم، سأدخل على القائد، لا بد أنه وصل.

مورالس (وهو يُوقفه)**:** كلمة أخيرة يا إزكويردو. هل يستطيع بوليفار أن يفلت منك بالرغم من كل ذلك؟

إزكويردو: لا؛ لأني سأعرف أين يختبئ قبل حلول الليل وقبل أن يستأنف مسيرته، أُقسم لك إني سأعرف كما عرفتُ من الذي أنقذه هذا الصباح! إلى اللقاء.

(يخرج الضباط من بعده. ويسمع زوازولا وهو يسأل.)

زوازولا: فيمن تشك يا مورالس؟

المشهد الثالث

(الأب كورونيل – مونسيرا)

(يستأنفان مناقشة بدأت قبل دخولهما.)

الأب كورونيل: ... ولذا يا بُني لست مرتاحًا لتصرفاتك هذه الأيام. إنك تقول كلامًا لو وصل إلى مسامع صاحب السعادة لجلب عليك غضبه وازدراءه.

مونسيرا: لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسي، إني أختنق منذ وصولي هنا، وأنت يا أبتي ألا تثور لهذه الاضطهادات والمذابح وأعمال السلب والعنف هذه؟ إنك تؤيد ثورة شعبنا في إسبانيا ضد المرتزقة البونابوتيين فكيف تدين هؤلاء الرجال الذين يُحاربون فوق أراضيهم ليحصلوا على حريتهم ويحيوا كبشر؟ بالأمس، حاول جنود فرقة ألورا (Alora) أن يخطفوا فتيات من قرية توتولس (Totulas) وقد قوبلوا بمقاومة من جانب كل السُّكَّان فهجموا عليهم بوحشية وحرقوا أكواخهم.

الأب كورونيل: آن الأوان يا بُني لكي تُسافر إلى كاديس (Cadix) بقاؤك هنا خطر عليك وعلينا، سأطلب من صاحب السعادة إعادتك إلى الوطن، ستُكلَّف بمأمورية لدى مجلس الوصاية، ولن يعترض صاحب السعادة على سفرك.

مونسيرا: كنت أظن يا أبتي أنك ستُدرك مشاعري تجاه هذا الشعب الفقير الذي لم يعرف حتى الآن سوى المآسي.

الأب كورونيل: لا يُمكنني أن أعطف على هؤلاء القوم الذي يُصرُّون على صنع أوثانهم من جديد وعبادتها سرًّا! والذين يرفضون الاعتراف، مُخلصين، بمجد الله.

مونسيرا: لا أدري إذا كان الرب غيورًا على مجده بقدر غيرة عباده على هذا المجد.

الأب كورونيل: أودُّ أن أُصدِّق أنك تسرَّعت في كلامك!

مونسيرا: وأنا يا أبتي أرى الله رحيمًا شفوقًا بهذه المخلوقات البائسة التي عمَّر بها الأرض.

الأب كورونيل: مخلوقات الله الحقيقية هي فقط تلك التي يسكنها قبس من الروح الإلهية.

مونسيرا: أنت ترى إذًا أن هؤلاء الهنود لا أرواح لهم شأنهم شأن البهائم؟

الأب كورونيل: بل أكثر من ذلك؛ الشياطين تسكنهم وتحركهم، ولذا فهم يتجرَّءون في حياتهم على مجد العَلِي القدير.

مونسيرا (مذعورًا)**:** أنت تؤيِّد إذن يا أبتي مجازر كامبيلو (Campillo) وسيكيسيك (Siquiseque) وسانتا نارو (Santa Naro) وتولولاك (Tolulac)؟ هل تتطلب هيبةُ الله حقًّا كلَّ هذه المذابح والخرائب؟

الأب كورونيل: يا بُني كيف لا تُدرك أنَّ في هذه المذابح وهذه الحرائق تُصاب روح الشيطان وتُحرق وتضْعُف؟

لماذا نرثي لحال هؤلاء التعساء ما دمنا من خلالهم بل وفيهم نقضي على الشيطان؟

إن الرائحة الكريهة التي تصعد من جثثهم ليست سوى عفونة الشيطان الرجيم.

مونسيرا (شارحًا): نعم؛ سأرحل، سأستقلُّ أول مركب.

الأب كورونيل: أوافقك (ملمحًا) ألا ترى أن صوت بوليفار هو صوت الوسواس الخنَّاس؟

مونسيرا (يرتبك ويتفرَّس في الأب كورونيل ثُم يُغمغم): سيمون بوليفار.

الأب كورونيل: انتظرني، سألحق بك بمجرد حصولي على أمر سفرك من صاحب السعادة.

المشهد الرابع

زوازولا (يدخل مندفعًا): أتريد أن تقابل صاحب السعادة يا أبتي؟ إنه يستمع الآن إلى تقرير إزكويردو حول مشكلة هذا الصباح.

الأب كورونيل: مشكلة هذا الصباح؟

زوازولا: ألم يبلغك نبأ فشل إزكويردو الذي تسرَّع وتفاخر بإلقاء القبض على بوليفار؟

الأب كورونيل: لم يكن لديَّ علم بذلك.

زوازولا: لقد عرف إزكويردو مخبأ المجرم عن طريق جواسيسه. وقد توجَّه مع رجاله، وفتَّش المنزل، لم يجد شيئًا. لقد علم الآخر بالأمر في الوقت المناسب فهرب بالرغم من المرض والحمَّى الشديدة ... يُقال إن الجنود أقاموا مجزرة ...!

مونسيرا (مرتاعًا): مجزرة!

زوازولا: كل عائلته وخدمه ... كان رجالنا ساخطين بعد هذه المسيرة الطويلة التي لا طائل تحتها، تصوَّر إن إحدى الفتيات فضَّلت أن تقطع رقبتها بشظية مرآة عن أن تستقبل فوق صدرها فرقة كاملة من مشاة صاحب الجلالة.

الأب كورونيل (بجفاء): كفى!

المشهد الخامس

(نفس الأشخاص – إزكويردو يتبعه مورالس وأنتونانزس)

إزكويردو: نعم، حصلت من صاحب السعادة ... آه صباح الخير يا أبتي!

(ثم لمونسيرا بجفاءٍ شديد) صباح الخير.

الأب كورونيل: صباح الخير يا كولونيل ... علامَ حصلت؟

إزكويردو: أوامر بقيام الفصائل بدورياتٍ مستمرة في منطقة لونا بارادو (Luna-Parado) في سانتا مونيكا. أمام بوليفار أحد احتمالَين؛ إمَّا اللحاق ببويلبا ليتولَّى قيادة المتمردين، أو الالتجاء إلى أصدقائه في كوراساو. وسنُراقب فرساننا إذن كل المسالك التي تؤدي إلى بويلبا أو الشاطئ.

الأب كورونيل: لماذا يتقهقر؟

إزكويردو: مرضه شديد وهو متأثر من هزيمة ميراندا (Miranda) أتعرف بالضبط ما هي مشاريع هذا الخائن؟ وجدنا هذا الصباح وثيقة نسيها. إنها مشروع دستور جمهوري برئيس جمهورية ومجلس أمة، وضم غرناطة الجديدة إلى فنزويلا تحت اسم «كولومبا» تخليدًا لذكرى مكتشف القارة. ولن يتحقَّق هذا بالطبع إلَّا بعد إلقاء آخر جندي إسباني في البحر! (يتظارف) أتظن أن هذا العبقري الثوري سيلجأ إلى الإنجليز ويتخلَّى عن محاولة ذبحنا جميعًا يا عزيزي مونسيرا؟

مونسيرا (ببرود)**:** لا أظن.

إزكويردو: حسنًا، هذا رأي مسئول، هل يتمسَّك بوليفار بأحلامه في تحرير هذه الحثالة من الهنود والزنوج والمولَّدين؟ ومع ذلك فلديَّ معلومات مفيدة؛ يُقال إن بوليفار يُفكِّر في التخلِّي عن كل شيء والالتجاء إلى الإنجليز، بم تُسمِّي هذا يا مونسيرا؟

مونسيرا: هروب.

إزكويردو: هروب؟ تقول هروب! إنها لخيانة. أليس هذا ما تعني؟!

مونسيرا: بالضبط.

إزكويردو: لكني بالطبع لن أترك لبوليفار العظيم فرصة الاختيار؛ بويلبا أو كوراساو! لا بد من القبض عليه. لو أدرك بويلبا لكان هذا معناه الحرب بالنسبة لنا، وإذا انضم إلى كوراساو فسيلحق به العار، سنشنقه ويُقضَى الأمر.

الأب كورونيل: ولكنَّه قد يفلت منَّا الليلة و...

إزكويردو (بحدَّة)**:** لا لن يفلت منَّا (صمت) إني واثق من اعتقاله الليلة، يجب أن نثأر لرفاقنا. أتذكرون جنودنا الثلاثة والعشرين الذين أسرهم المتمردون وعلَّقوهم أحياء من فكهم في خطاطيف الجزارين؟ أتذكر أين تمَّ هذا يا مونسيرا.

مونسيرا: في سانتا مونيكا.

إزكويردو: أي نعم، بالضبط، ذاكرتك قوية، يجب أن نثأر أيضًا لهؤلاء البؤساء الثمانية عشر الذين قبض عليهم المتمردون وطلوهم بالعسل ثم تركوهم فريسة حيَّة للنمل الأحمر، أظن أن سيمون بوليفار هذا يتحمَّل قدرًا من المسئولية في تلك الجرائم وغيرها من أعمال أنصاره؟

الأب كورونيل: ولكن كيف تمكَّن بوليفار من الهرب هذا الصباح. لا بد أنه أُخْطِر؟ هل حقَّقتَ في الموضوع ... من الذي أبلغه؟

إزكويردو: بالأمس يا أبتي، كنَّا تسعة ضباط حاضرين على مائدة صاحب السعادة، تسعة فقط عندما أعلنت عن خطة إلقاء القبض على بوليفار قبل طلوع النهار. كان على هذه المائدة، بخلاف الجنرال وأنا، رؤساء الأسلحة الثلاثة، أي خمسة أشخاص، ثم زوازولا وأنتونانزس وموراليس ... وأنا أضمنهم كما أضمن نفسي.

مونسيرا (شاحبًا وبصوتٍ ملول)**:** استمر يا إزكويردو. أنا التاسع.

إزكويردو: نعم.

مونسيرا: و... هل تضمنني أنا أيضًا؟

إزكويردو: لا.

الأب كورونيل: ما هذا يا إزكويردو؟ و... أ...

إزكويردو: تمهَّل يا أبتي واستمع إليَّ، لقد قدمت بالأمس إلى صاحب السعادة في حضور زملاء موثوق فيهم تقارير رجالي عن اكتشاف المخبأ الذي التجأ إليه بوليفار وهو مريض كما عرضت الخطة التي رسمتها للقبض عليه، وبعد ذلك بساعتَين كان حارس الحظائر يفضح الشخص الذي جاء يطلب جوادًا من أجل مهمةٍ عاجلة ...

مونسيرا: «بأن الليل حالك الظلام ويُستحسن أن ينتظر بزوغ القمر.»

إزكويردو: وبالرغم من الليل الحالك استطاع أن يتجه نحو المزرعة التي يختفي فيها بوليفار، وقد نقلوه وهو مريض محموم على فرسٍ سوداء.

مونسيرا: وأوثقوه بالسرج بسبب ضعفه الشديد.

إزكويردو: وعندما وصلت قواتنا راحت تُفتش كل المباني بلا جدوى.

مونسيرا: وقد أثار هذا سخطهم فأبادوا كل السُّكان وقطعت فتاةٌ رقبتَها بشظية مرآة حتى لا يعتدوا عليها.

إزكويردو: ولكنَّنا استطعنا أن نستجوب السايس الذي حمله بنفسه فوق سرج الفرس السوداء، وقد حدَّثَنا عن سيماء النُّبل والأناقة التي يتحلَّى بها رفيق بوليفار.

(كورونيل يخرج ببطء.)

إزكويردو: يا أبتي أؤكد لك أنه لن تكون هناك أي جدوى من مقابلة صاحب السعادة لطلب العفو عن المتهم، فلا زالت هناك مهمة تزَك لي صاحب السعادة حرية إنجازها على الوجه الذي أُقرِّرُه أنا.

الأب كورونيل (بازدراء)**:** لن أطلب العفو عن أحد! سأذهب إلى الكنيسة لأُصلي حتى تطلبوني للوقوف إلى جانب المحكوم عليه!

المشهد السادس

(نفس الأشخاص ما عدا الأب كورونيل)

إزكويردو (بتعجُّل)**:** الوقت يمر بسرعة، سيظل بوليفار مختبئًا حتى حلول الليل خوفًا من الدوريات، ثمَّ يُحاول الإفلات منَّا بشكلٍ نهائي، الساعة الآن الثالثة وسنتوجه للقبض عليه بعد ساعة ... يا مورالس!

مورالس: نعم.

إزكويردو: خذ معك عشرة رجال وانزل في الطريق العام، اقبض على أول ستة أشخاص تُصادفهم وأحضرهم هنا.

مورالس: أول ستة أشخاص؟

إزكويردو: بالطبع، بسرعة.

مورالس: حاضر.

المشهد السابع

(مونسيرا – إزكويردو – أنتونانزس – زوازولا)

(يقف الثلاثة الآخرون خلف مونسيرا، استعدادًا للإمساك به إذا حاول الإفلات.)

إزكويردو: أرثي لحالك يا مونسيرا؛ أعرف أنك شجاع ولكنَّك ستحتاج لشجاعةٍ نادرة.

مونسيرا: أنا لا أخشى شيئًا.

إزكويردو: من يدري؟ يُمكنني أن أُعذبك حتى الموت ولكنَّك لن تتكلَّم، أنا أعرفك جيدًا، ولو مت وأنا أعذبك لضاعت والله فرصة القبض على بوليفار مع أنفاسك الأخيرة. لقد ترك لي صاحب السعادة حرية اختيار الوسائل التي تحملك على الإرشاد عن مخبأ صديقك.

مونسيرا: ما دمت تعرف أني لن أتكلم فلماذا لا تأمر بإطلاق النار عليَّ.

إزكويردو (بهدوء): ستتكلَّم ... (يمشي جيئة وذهابًا ورأسه منكَّس ثم يقف ويتفرَّس في مونسيرا) استمع إليَّ، سأُغلق الباب هنا على ستة أشخاص معك؛ أشخاص مقبوض عليهم في الطريق بمحض الصدفة، أبرياء يا مونسيرا! رجال ونساء من أبناء هذا الشعب الذي تُحبه أكثر من العَلَم الذي تُحارب تحت ظله، وإذا لم تدلنا خلال ساعة على مخبأ بوليفار فسنعدمهم جميعًا.

مونسيرا (وقد أُسقط في يده): هذا مستحيل يا إزكويردو. هذا عمل غير إنساني.

إزكويردو (بازدراء): المهم أنه فعَّال.

مونسيرا: أريد أن أقابل الجنرال.

إزكويردو (بحدَّة): مرفوض (صمت) ... أمامك ساعة وبعدها سنطلق النار عليهم إذا صمَّمت على موقفك. عليك أن تختار بين موت بوليفار الخائن المتمرد أو مقتل ستة أبرياء.

مونسيرا (يصرخ في ثورة): أنت حيوان قذر. كان يجب عليَّ أن أُحطِّم رأسك يوم جومارا (Gomara) عندما أمرت بدفن جميع الأسرى أحياءً.

إزكويردو: اسكت! سيكون الأمر أصعب مِمَّا كان يوم جومارا.

مونسيرا (قد خرج عن طوره): إني أمقتك (يُحاول الانقضاض على إزكويردو فيمسكون به).

إزكويردو (بسخرية): أرأف بحالك وأرثي لك من كل قلبي لأنك ستمر بامتحانٍ عسير، عسيرٍ جدًّا.

مونسيرا: أريد أن أقابل القائد. سيأمر سعادته بإعدامي لأنني خنت وفضَّلت قضية البشر الذين تضطهدهم على الولاء للملك، فليحكم عليَّ بالإعدام، فهذا لا يهمني وأنا موافق على أن أموت خائنًا، أعترف بأني خائن لمعسكركم لأني إنسان ولديَّ مشاعرُ إنسانية، ولست آلة للقتل، آلة عمياء قاسية!

إزكويردو: كفى! لقد أمر سعادته بأن أجعلك تبوح بمخبأ بوليفار بأي وسيلة كانت. وهذه الوسيلة في يدي (صمت) لا أريد أن أعرف إذا كان الذين سيحضرون هنا معنا أو

ضدنا، يحبوننا أو يكرهوننا. المهم أن يكونوا أبرياء، قد يكون بعضهم من رعايا الملك المخلصين، هذا أفضل؛ لن يقع أي لوم عليهم، أنت الوحيد المتهم هنا، متهم بمساعدة قائدٍ متمرد على الهرب. الصفقة واضحة، واحدة بواحدة: حياة ستة أبرياء في مقابل حياة خائنٍ مجرم.

مونسيرا: لا أستطيع! لا أستطيع! لا أستطيع!

إزكويردو: ما الذي يمنعك؟ الشرف مثلًا؟ ألَّا تُسلِّم صديقًا آويته؟ أليس كذلك؟ فكر يا مونسيرا، ستة أبرياء! زِن الأمور جيدًا، شرفك ...

مونسيرا: آه، هذه ليست المشكلة! لو أن الأمر يقتصر على شرفي فقط!

إزكويردو: ماذا إذًا؟

(تُسمَع في الخارج ضوضاء، وقع أقدام، صرخات: «تقدَّموا.» «لكني لم أفعل شيئًا!» «اسكت».)

المشهد الثامن

(نفس الأشخاص ومعهم الفخراني والتاجر وجنود)

إزكويردو (ساخرًا): إليك بالأولين يا مونسيرا! قد تتخيَّل أني لن أمضي حتى نهاية الشوط!

وأنها ليست سوى مهزلة أمثِّلها! لا ... أنت تعرفني جيدًا.

مونسيرا (في قلقٍ شديد): أعرفك لكن هذا مستحيل! هذا لن يكون.

الفخراني (في استحياء): قبضوا علينا.

إزكويردو (بسعادةٍ مفتعلة): وبعد؟

الفخراني (في نفس الحالة): لم نفعل أي شيء ... كنت أُمُرُّ في الميدان ...

إزكويردو: عارف، عارف.

التاجر: أنستطيع أن نستوضح الأمر ... وماذا ... يريدون منَّا؟

إزكويردو (يضع يديه في وسطه): سوف ترى.

التاجر: إنهم ...

إزكويردو: ماذا؟

التاجر (خائفًا): إنهم ينتظرونني.

إزكويردو (متفرِّسًا في وجهه): مَن؟

التاجر: زوجتي، في المنزل.

إزكويردو: إذًا فستنتظر زوجتك! أتريد أن تبقى دائمًا في أحضانها! ستُستهلك والله! شيء من الراحة هنا لتستعيد قواك ... أنت متزوج منذ أمدٍ طويل؟

التاجر: سنة.

إزكويردو: آه، فهمت! ... مَن أنت إذن؟

التاجر (على استحياء): سالس إينا (Salas Ina)، التاجر ... في ميدان الملك.

إزكويردو: في الميدان، آه، أنت بائع الأقمشة والأصواف ... أليس كذلك؟

التاجر: نعم.

إزكويردو: تاجرٌ غني ... تجارةٌ كبيرة ... وزوجةٌ جميلة على ما يُقال. الكل يُبدي إعجابه بها عند خروجها من الكاتدرائية صباح يوم الأحد، قوام وأكتاف، وعيون! لم أرَها أبدًا، فللأسف، نادرًا ما أتردَّد على الكاتدرائية، ولكن بعض ضُباطي الشبان ... قل لي إذن، أزوجتك جميلة؟

التاجر (منكسًا رأسه): نعم.

إزكويردو: أتحبها بشدة؟

التاجر (لا يزال منكس الرأس): نعم.

إزكويردو (مازحًا): هذا لا يعني شيئًا ... قل لي ... هل تحبها أكثر من حياتك؟ ... هيا ... جاوب! أكثر من حياتك؟

التاجر (ينظر إليه في هلع ثمَّ يقول في نفَسٍ واحد): نعم.

إزكويردو (ضاحكًا): حسنًا! هكذا يكون الحب! ... سؤال آخر ما مقدار ثروتك؟ أنت لا تملك بالطبع هذا المحل الكبير فقط؟ المعروف عنك أنك غني جدًّا! تكلَّم!

التاجر (على مضض): لديَّ ... منزلان ...

إزكويردو: منزلان؟! بالطبع ليست أكواخًا، هذا أكيد، عمارات كبيرة وجميلة تُدِر عليك إيرادًا ... أليس كذلك؟ ولكنَّك تملك أيضًا قطعانًا! لديك قطعان مواشٍ!

التاجر (في هلع): لديَّ ألف ومائتا رأس ماشية.

إزكويردو: والمسيح الحي، أنت أغنى بكثير ممَّا كنت أتصور! وبالطبع تتبختر هذه الحيوانات الصغيرة في مراعيك الخاصة ...! (يُصفِّر في إعجاب) بالاختصار: أنت تملك ثروةً ضخمة! وامرأةً جميلة! أنت رجل سعيد إذن! ... جاوب! ألا تُريد أن تُجاوب؟ ... ألست رجلًا سعيدًا؟

التاجر (في نفسٍ واحد): نعم.

إزكويردو: قل بوضوح: أنا رجل سعيد!

التاجر (في صوتٍ مكتئب): أنا رجل سعيد.

إزكويردو (يُكلِّم مونسيرا): حسنًا! أسمعت يا مونسيرا؟ رجل سعيد، رجل مغمور بالحب والسعادة والشباب، أخذ من الحياة أحلى ثمارها، وأجمل أزهارها! وهو يُريد أن تدوم هذه السعادة؟ هل ستتذكَّر ذلك يا مونسيرا؟ (يُكلِّم الفخراني) وأنت، من أنت؟ رجل فقير، لا زهور ولا فواكه! هذا واضح!

الفخراني (بتواضع شديد): أنا لوهان (Luhan)، أرنال لوهان (Arnal Luhan) الفخراني.

إزكويردو (منشرحًا): فخراني! ... فخراني! مورالس يقبض الآن على الفخرانية!

أنتونانزس: إنه لوهان الشهير، لقد تعرَّفت عليه.

إزكويردو (مازحًا): ماذا؟ أنت تعرف هذا الحقير؟

أنتونانزس: إنه يصنع جِرارًا على شكل حيوانات تصدر منها أصوات تُحاكي صوت هذه الحيوانات عندما يُسكب منها الماء.

إزكويردو (بجدية): هذا شيق جدًّا! اشرح لنا ذلك! كيف تستطيع أن تفعل هذا؟ لقد رأيت إحدى جِرارك. كانت على شكل قطة وكانت تموء كلَّما أفرغت ماءها؟ هذا مدهش!

الفخراني (وهو في حالة عدم ارتياح): عشت طويلًا في بيرو؛ عائلتي من هناك، جئت هنا منذ أمدٍ طويل مع قافلة. لقد تعلَّمت هناك في بلدي أسرار الفخرانية الهنود ... وأُحاول أن أحسنها.

إزكويردو (وقد بدا عليه الاهتمام الشديد): كيف تستطيع أن تحسنها؟

الفخراني (وقد تشجَّع): نعم ... اكتشفت تركيبات جديدة لمسالك الماء داخل الجرة ... لا أريد أن أكتفي بمحاكاة صوت الحيوان ... ولكن صوت الإنسان.

إزكويردو: صوت الإنسان؟

الفخراني: نعم ... أن أجعل الجرة تتكلَّم وهي على شكل رأس إنسان بالطبع.

إزكويردو (الذي يبدو أنه نسي كل شيءٍ آخر): بالطبع، وهل توصَّلت إلى نتائج؟

الفخراني (في تواضع): الحق إنها قليلة، استطعت أن أصنع من الفخار رأس رجل يبكي ... عندما يُسكب الماء، تنزل الدموع من طرف العينين وتصدر في نفس الوقت أنَّةً ونحيبًا.

إزكويردو (وقد ظهر عليه الإعجاب الشديد): هذا شيء فريد من نوعه!
الفخراني (في تواضع): كان الهنود القدامى في بيرو يصنعون الجرار الباكية.
إزكويردو: أريد أن أرى هذا.
الفخراني: أسكن بالقرب من هنا يا حضرة الضابط.
إزكويردو: اسكت ... انتظر قليلًا (يستمع وهو ينظر في اتجاه الباب).

(تُسمَع صرخاتٌ جديدة في الخارج، وقع أقدام وشتائم يُطلقها الجنود.)

المشهد التاسع

(نفس الأشخاص ومعهم الأم والممثل وإيلينا وريكاردو وموارلس وجنود)

الأم (تُكلِّم إزكويردو): يا حضرة الضابط، قَبض علينا هؤلاء الجنود. لا أعرف شيئًا من أمر الآخرين. أمَّا عن نفسي فلم أفعل شيئًا. لا أدري لماذا جاءوا بي إلى هنا.
الممثل: ولا أنا.
الأم: كنت أسير في الطريق يا حضرة الضابط خرجت لأشتري الخبز وتركت ابنَيَّ وحدهما. الصغير سِنه عشرة شهور ويجب أن أرضعه بعد قليل ... والآخر في الثانية من عمره. وهما نائمان الآن، هل سنُحتَجز هنا مدةً طويلة؟
إزكويردو (مُخاطبًا مونسيرا): أسمعت يا مونسيرا؟ إذن جاوب أنت ... أليس لديك ما تقوله؟

(الرهائن تنظر لمونسيرا في حيرة.)

الممثل: يا حضرة الضابط، لم نفعل أي شيء، ماذا يريدون منَّا؟ ماذا في الأمر؟ أنا كنت أسير في الشارع في طريقي إلى بيتي، كنت عند صديقي رويج (Roig) الموسيقار، بوسعكم أن تتأكَّدوا من كلامي.
إزكويردو (مخاطبًا مونسيرا): أسمعتَ هذا أيضًا؟ لم يفعل شيئًا! لم يفعلوا أي شيء! ... كلهم أبرياء!

(موارلس ينحني على إزكويردو ويُشير إلى الممثل ويهمس في أذنه.)

إزكويردو (بصوت مرتفع): آه! هو! هذا رائع. لم أتعرَّف عليه أحقًّا أنت جوان سالسيدو (Juan Salcedo).

الممثل (في انطلاق): نعم يا حضرة الضابط، جوان سالسيدو ألفاريز (Alvarez)!

إزكويردو: جئت من كاديس (Cadix) منذ ستة أشهر مع فرقة المسرح الملكي في إشبيلية.

الممثل: بالضبط يا حضرة الضابط.

إزكويردو: شاهدتك وأنت تُمثِّل مأساة فوق السفينة «الأميرة إيزابلا» وهي راسية في لاجوايارا (Laguayara).

الممثل (وكله أمل): فعلًا يا حضرة الضابط! كنَّا نُقدِّم مسرحية أسكازيو (Ascasio)، مأساة حديثة بالنثر ... عمل جبَّار!

إزكويردو (متلاطفًا): آه بالطبع، كانت هناك بعض الألفاظ الخارجة والثرثرة ... وبدا لي الفصل الثاني أطول من اللازم!

ولكنَّها مسرحية رائعة على أي حال. كانت ليلةً جميلة من ليالي يونيو، تمَّ العرض على سطح السفينة بين صفَّين من المشاعل ... كنت تؤدي دور أسكازيو.

الممثل: نعم يا حضرة الضابط.

إزكويردو: أتذكرك الآن ... أي أتذكَّر أسكازيو ... (يُفكِّر) لقد مات ميتةً نبيلة في الفصل الأخير.

الممثل: المشهد بجوار المشنقة.

إزكويردو: بالضبط، عندما يلتفت إلى جلَّاديه ويرفض أن يحقد عليهم ويُحاول أن يغفر لهم بإخلاص.

الممثل: حتى يظل نقيًّا.

إزكويردو (بسخريةٍ خفيفة): ويفوز برضاء الله (يُفكِّر وهو مُنكَّس الرأس ونظره مثبت على طرف حذائه ويداه خلف ظهره) الحق يا سالسيدو أن مهنتك جميلة. أنت شخصٌ آخر في كل مرة. أنت، أنت نفسك وشخصٌ آخر أيضًا. أنت تتعدَّد من خلال مصائرَ أخرى! تموت مع احتراق الشموع وتحيا من جديد مع الحب ومع آلام وعذابات الآخرين ... تموت مائة مرة وتعود للحياة مائة مرة ... (صمت) حياة الممثل مغامرة مدهشة حقًّا!

الممثل (في حركة غير مُحدَّدة وقد بدا عليه عدم الارتياح): نعم، إنها مهنةٌ رائعة.

إزكويردو (في ابتسامةٍ باردة): رائعة حقًّا. يا جوان سالسيدو ألفاريز ستُمثِّل لنا الليلة دورًا هائلًا يتناسب مع عبقريتك، لن تكون الليلة أسكازيو أو روديوج أو دون جوان، بل جوان سالسيدو ألفاريز نفسه. سيكون أعظم أدوارك الذي سيبقى محفورًا في ذاكرة البشر،

ستتحدَّث أمريكا كلها عن جوان سالسيدو وهو يؤدي دور جوان سالسيدو، سيقولون عنك في المستقبل: أدَّى دور السيد ودور دون جوان ودور سيجيسموند (Sigismond) ولكنَّه بلغ الإعجاز في دور جوان سالسيدو.

الممثل (وقد بدا عليه الضيق)**:** لا أفهم! ماذا في الأمر؟

إزكويردو: سترى بنفسك، ولكنِّي أقول لك من الآن إنك ستؤدي، أو تعيش بالأحرى، مأساة من تأليفي أنا، هل تذكر سيجيسموند في مسرحية «الحياة حلم»؟ لم يكن يدري هل كان حيًّا وهو يحلم أو إنه يحلم وهو حي … ستجد نفسك في موقفٍ مُشابه تقريبًا!

(يضحك.)

الممثل (قلقًا)**:** أود أن أعرف …

(يدخل الأب كورونيل في بطء وينظر للرهائن دون أن يفهم.)

المشهد العاشر

(نفس الأشخاص ومعهم الأب كورونيل)

إزكويردو (يُخاطب الأب كورونيل)**:** تعالَ يا أبتي، أُقدِّم لك الممثل جوان سالسيدو … سيُمثِّل دورًا خصوصًا لنا. ومع ذلك فلن يحتاج إلى جهدٍ خاص لكي يعيش روحًا أخرى يعيرها جسده … فهذا لا يُرضي الله أبدًا، أليس كذلك يا أبتي؟ لا يحق لنا أن نُبادل أرواحنا، ولا أظن أن الله يرضى أن نُعيد الحياة لأرواحٍ أخرى، لم يخلقها هو، ولو لمدة ساعات على خشبة المسرح، ألست محقًّا في ذلك؟

الأب كورونيل (ببرود)**:** ما هذا؟ ماذا يفعل كل هؤلاء القوم هنا؟ هل عملوا شيئًا؟

التاجر (وكله أمل وفي انطلاق)**:** لم نرتكب أي إثم يا أبتي، أنا كنت أسير في الشارع وفجأة أحاط بي الجنود وساقوني إلى هنا، لم أفعل شيئًا، أقسم لك إني لم أفعل شيئًا!

الأب كورونيل (يُخاطب إزكويردو)**:** هل تشرح لي الأمر؟

إزكويردو (مُخاطبًا الرهائن)**:** هذا حسن جدًّا، أعرف تمامًا أنكم لم تفعلوا أي شيء. وهذا سبب وجودكم هنا، أنتم أبرياء! ذنبكم … البراءة، وأنا أستخدم معكم الرأفة، لو أني ترجمت الأفكار العميقة للأب كورونيل لاتَّهمتكم بأعظم جريمة … جريمة مجيئكم إلى هذا العالم! أليس الأمر كذلك يا أبتي؟

التاجر: لا أفهم ما تعني.

الأب كورونيل (مُخاطبًا إزكويردو بجفاء)**:** كفى هزلًا وتكلَّم!

إزكويردو (يُخاطب التاجر بقسوة)**:** اسكت وستفهم ... (ينظر إليهم جميعًافي صمت) استمعوا إليَّ، هذا الضابط الذي ترونه أمامكم خائن وهو يعرف أين يختبئ الكولونيل بوليفار. يجب أن نُلقي القبض عليه هذا المساء. وهذا الولد يعرف مخبأه. ولكنه لا يُريد أن يخون صديقه. وعليكم أنتم أن تحصلوا منه على ما يُفيد عن المكان الذي التجأ إليه بوليفار، هل هذا واضح؟

الأم: وإذا رفض أن يتكلَّم؟

الفخراني: لقد رفض أن يعترف لكم، فكيف يُمكننا نحن أن نجعله يتكلَّم، وما لنا نحن بكل هذا؟

التاجر: نعم، هذا لا يعنينا في شيء.

إزكويردو: أنتم مخطئون في ذلك؛ فعلاقتكم بالموضوع وثيقة.

الفخراني: لم أعد أفهم شيئًا، لماذا أُقحمنا نحن في هذه المسألة؟

إزكويردو: سأقول لكم، الساعة الآن الثالثة والنصف تقريبًا، وستظلون محبوسِين مع هذا الرجل لمدة ساعة.

الأم (فَزِعة)**:** ساعة؟!

إزكويردو: إذا لم يعترف لنا بسرِّه خلال ساعة ...

الفخراني والتاجر (في نفسٍ واحد)**:** هه!

إزكويردو: ستُعدَمون رميًا بالرصاص بالطبع.

(صمت.)

إزكويردو (يُشير إليهم الواحد إثر الآخر)**:** أنتم الستة.

الأم (في استحياء)**:** ولكن يا حضرة الضابط ... أولادي؟

إزكويردو: حياتكم مُعلَّقة بكلمة من هذا الولد (يُخاطب الجنود) وأنتم احرسوا الأبواب.

مونسيرا (وقد انتابه الهلع)**:** إزكويردو!

إزكويردو: ماذا؟

(ينظر كلٌّ منهما في عينَي الآخر.)

إزكويردو: سأعود بعد ساعة (يخرج ثمَّ يعود أدراجه) آه وأنت يا فخراني كنت أريد أن أسألك على شيءٍ هام.

الفخراني (وهو يلهث)**:** نعم يا حضرة الضابط.

إزكويردو (مقطب الجبين)**:** أريد أن أعرف ... لكي تصنع الأواني التي تُحاكي صوت إنسان يبكي، لا شك أنك فعلت نفس الشيء كما هو الحال بالنسبة للقط والعصفور، فاستمعت مدةً طويلة لإنسان يبكي؟

الفخراني: نعم يا حضرة الضابط.

إزكويردو: كيف تمَّ لك ذلك؟

الفخراني: كنت أجلس كل صباح ... تحت نوافذ سجن المحكوم عليهم بالإعدام.

إزكويردو: وماذا بعد؟

الفخراني: في أغلب الأحوال ... كان هناك ... رجل يبكي.

إزكويردو (بابتسامة باردة)**:** يا فخراني، سأذكرك بعد قليل أنك كنت تحب جرارك أكثر من البشر.

(يخرج إزكويردو وموارلس، ومن بعدهما الأب كورونيل.)

(ستار)

الفصل الثاني

المشهد الأول

(مونسيرا والرهائن الستة)

(مونسيرا على اليمين، يعتمد على مائدة ورأسه منكَّس.)

التاجر: لماذا لا تُجيب؟ هه؟ انظر لي!
الفخراني: الوقت يمرُّ بسرعة! فقدنا حتى الآن عدة دقائق.
تكلَّم! قل لنا ماذا تنوي أن تفعل. لا تبقَ هكذا!
الأم: انتظروا (تقترب من مونسيرا ببطء وتقول له في صوتٍ رقيق).
أتعتقد أن الضابط سينفذ حقًّا ما قال؟ رد عليَّ من فضلك ... هل أنت واثق أنك إذا لم تقل شيئًا ... سيتمسَّك بكلمته؟
مونسيرا (مرهقًا): نعم.
التاجر (بغضب): يجب أن نفهم الأمر! هذا الوضع سخيف حقًّا وفظيع حقًّا. يجب أن تُوضِّح لنا الأمور!
مونسيرا (في ملل): لقد شرح لك الأمر.
الفخراني (منهارًا): والضابط قادر على تنفيذ وعيده، أنت تعرفه هل يُمكن أن يقترف هذه الجريمة. أجب عليَّ!
مونسيرا (دون أن يرفع عينَيه): أعرفه ... إنه قادر ... (صمت).
هو الذي دفن الأسرى أحياءً بعد معركة جومارا.

(الرهائن تنظر لبعضها في جزع.)

التاجر (في هلع): هو!

الفخراني (يتمتم): كان يُدخِلهم واحدًا إثر الآخر في الحفرة.

الممثل (في ثورة ويأس): ولكن من أنت يا من تسبَّبت لنا في هذه المصيبة؟

الفخراني: هل أنت إسباني؟

مونسيرا: نعم.

الفخراني: وأخفيت بوليفار؟

الممثل (في غضب): لماذا؟ لماذا؟ أنت خائن إذن؟ خنت الملك! تقف في صف المتمردين؟ لماذا؟

مونسيرا (يتردَّد، ثم ينظر للرهائن): لأني ... معكم!

التاجر: ماذا تعني بهذا الكلام ... معنا؟

مونسيرا (بصوتٍ متهدج): أنا معكم ضد ذَوِيَّ، ضد اضطهاداتهم وجرائمهم، ضد طريقتهم البشعة في التنكُّر للبشر ... أنتم ترون بوضوح أن حياة الإنسان وكرامة الإنسان لا وزن لها عندهم!

التاجر (وقد خرج عن طوره): لا يعنيني في شيء أن تكون مع الإسبانيين أو ضدهم! معنا أو ضدنا! نحن الستة هنا مُهدَّدون؟ ونحن الذين سنُقتَل! نريد أن نعرف نواياك!

الأم: نعم، ماذا ستفعل؟

الممثل (مهدِّدًا): قل لنا أين أخفيت بوليفار؟ لا أريد أن أموت هكذا! لم أفعل شيئًا! أنا إسباني! وكنت في طريقي إلى منزلي، عائدًا من عند الموسيقار رويج، يُمكنكم أن تتحقَّقوا من ذلك، لم أشترك في أي مؤامرة أبدًا، لقد مثَّلت أمام الملكة في عام ١٨٠٧م. والتحقت بالمسرح الملكي في مدريد حتى دخول الفرنسيين! كنت دائمًا مخلصًا لصاحب الجلالة! دائمًا! رفضت أن أُمثِّل أمام الفرنسيين.

التاجر (مهدِّدًا): هل ستتكلم؟ نعم أم لا؟

مونسيرا (في جزع وهو يُقاوم إغراء): افهموني.

الفخراني (ثائرًا): ماذا تريد أن نفهم؟ ألم نفهم ما قال الضابط؟ إمَّا أن نُسلِّم بوليفار وإمَّا نُعدم كلنا. أليس الأمر كذلك؟ أنا لديَّ خمسة أطفال، أكبرهم لم يبلغ الثانية عشرة بعدُ. وإني أستطيع بالكاد أن أربيهم عن طريق صنع الجِرار وبيعها بنفسي! لن تطعمهم أنت بالطبع من بعدي؟ ماذا إذن؟

مونسيرا (في حماس): هذا صحيح، كل هذا صحيح، كلٌّ منَّا يُدافع عن حقيقته وعن حياته وعن أهم ما في حياته، ولكن بوليفار هو آخر أمل، الأمل الوحيد الباقي لأهالي فنزويلا لكي يتحرَّروا من الإسبان! إذا سلَّمتُ بوليفار فلن أسلمه وحده ولكنِّي سأسلم الحرية وحياة الملايين من البشر!

الممثل (مأخوذًا): آه! ضعنا! لن يُرشد عنه!

مونسيرا (كأنه لم يسمع): ليست المسألة التضحية بكم من أجل رجلٍ واحد، كل أمريكا الجنوبية، عالَم بأسره، ينتظر التحرُّر على يد بوليفار، عالم بأكلمه يتعذَّب في ظل أقسى أشكال السيطرة وأفظعها وأخسِّها!

الممثل (في هلع): سيرفض! سيُضحي بنا!

مونسيرا (وقد بدأ يهدأ): بوليفار هو الرجل الوحيد، القائد الوحيد القادر على مواصلة الحرب من أجل الاستقلال ضد الإسبان، الوحيد الذي يستطيع أن يواصل السير بالثورة ويصنع على هذه الأرض أمةً حرة، أمةً عظيمة من الرجال الأحرار!

الممثل (في هلع): هذا يعني أنك ترفض الكلام.

الفخراني: أنت لم تُقرِّر أن تتركهم يعدموننا، أليس كذلك؟

الأم (في جزع): لا، لا، سيتكلم، سترون! سيقول لنا.

الفخراني (في عنف): نعم أم لا؟ هل ستبوح لنا بالمكان الذي أخفيت فيه بوليفار؟

مونسيرا (يتردَّد في الإجابة، من الواضح أنه يتساءل ويتألَّم): افهموني.

الفخراني (يصرخ): لا. رد على سؤالي! الوقت يمر! الضابط سيحضر. جاوب! جاوب! (يُمسك بتلابيبه) وإلَّا خنقتك!

الأم (لاهثة): اتركه! سيُجيب ... سترى ... سيُجيب.

مونسيرا: استمعوا لي ... إنكم تحيون جميعًا تحت سيطرة رجالٍ متوحشين لا يرحمون! أليست لديكم كرامة أو إباء؟ ألا تشعرون بأي حقد على سفَّاحي كامبيلو وجلَّادي كوماتا؟ تذكَّروا، تذكروا جيدًا! لقد حرق الجنرال روزيت (Rosette) الأسرى وهم أحياء في كامبيلو! وعلَّق مورالس كل المواليد على الأبواب في كوماتا! وأنتونانزس يهوى جمع الأيدي المقطوعة! وإزكويردو يأسر الفتيات ليعتدي عليهن فرسانُه! وجنوده في كل مكان أقوياء، متوحشون لا يرتدعون ... أليس هو صاحب هذه الفكرة الشيطانية، فكرة حبسنا هنا. أليس هو مخترع هذا التعذيب البشع.

الفخراني (وقد تجلَّى كل شيء له): سيتركهم يعدموننا.

مونسيرا: الإسبانيون لا يعتبرونكم بشرًا بل حيوانات، مخلوقات دنيئة يجب سحقها! ألا تثورون لكل هذه الفظائع وكل هذه الوحشية؟ ألا يكفي هذا لكي تقفوا في وجه هؤلاء المتوحشين مهما كلفكم الأمر؟ هل وضعت هزيمة الثوار في سان ماتيسو حدًّا لكل أمل؟ لا، أقول لكم لا! أصرخ بكل قوة: لا! يجب أن نجمع شمل الأنصار من جديد! يجب أن نُعيد تكوين جيش الاستقلال! بوليفار وحده هو القادر على إنجاز الثورة، يجب أن ننفذه، يجب، ومهما كان الثمن!

التاجر (ينقضُّ عليه وقد أعماه الغضب)**:** هل ستقول لنا أين يختبئ؟ نعم أم لا؟ تكلَّم (يُمسك به من رقبته ويصفعه) تكلَّم! تكلَّم إذن! يا وغد!

مونسيرا (يُبعده عنه بغير عنف)**:** بفضل بوليفار ستأتي ساعة خلاص هذا البلد، الساعة التي سيُصبح فيها هذا البلد أمةً عظيمة من الرجال الأحرار! بفضل بوليفار!

الممثل: اسمعني جيدًا. لا يُمكن أن تفعل هذا! لا يُمكن أن تقتل ستة لتنقذ واحدًا!

مونسيرا: افهموني! افهموني! أنا أُدرك أنه من العسير عليكم أن تفهموا ... ليس الأمر مجرد حياة ست أرواح في مقابل حياة روحٍ واحدة، بل في مقابل الحرية ... في مقابل حياة آلاف البؤساء!

الممثل (الذي يخشى هذه الإجابة)**:** إذن ... أنت ... لن تقول شيئًا!

مونسيرا (لا يرد توًّا، فشعر بأنه يُحاول أن يقنع نفسه، ويقول أخيرًا بعد جهد)**:** لا أعرف! لم أعد أعرف! أريد أن أتمكَّن من المعرفة ... معرفة ما إذا كنت على حق ... إذا كنت لا أخطئ.

الممثل (يُحاول أن يستميله)**:** بالطبع، فكِّر! ... أنت ذكي! ستكتشف بنفسك أن إصرارك هذا ضرب من الجنون! وأن الصفقة مربحة! ستة أحياء دفعةً واحدة! المسألة ليست بهذه البساطة. الله يراك! وسيُعينك! استمع لصوت الله! استمع لآلامنا وشقائنا! كل هذا أمام عينيك! افتح قلبك!

مونسيرا: ألم يضعنا الله أمام هذه التجربة؟ ألا يجب علينا جميعًا أن نتقبَّلها ونتخطاها؟ ألا يتعيَّن علينا أن نستحق الجنة بأعمالنا؟ آه! فكِّروا أنتم أيضًا، يجب أن نُنقذ أرواحنا أولًا لا أجسادنا! (يتمادى في انفعاله) يجب أن نموت الليلة من أجل إنقاذ ملايين البشر، من أجل إنقاذهم من الشقاء، لكي نظل جديرين بآلام المسيح! الموت يفزعكم. ولكن هذه الميتة غنية إلى حد الإعجاز! سنفقد أجسادنا ولكنَّنا سنُنقذ أرواحنا إلى الأبد. كل

الذين اختاروا جانب الله لاقوا الاضطهاد! الله معنا! أنا واثق من ذلك! لقد اختاركم أنتم بالذات. يجب ألَّا تثوروا بل صلُّوا وابتهلوا إليه. لا يُمكننا أن نُدرك حكمته ولكن علينا أن نخضع لمشيئته!

التاجر: الرجل يهرف!

الفخراني: أبدًا! أنت ترى جيدًا أنه يرفض! يرفض الكلام!

التاجر: لن يرشد عن بوليفار!

الفخراني: نحن هالكون!

التاجر: يا كلب! سنجبرك على الكلام! أنت تكسب الوقت بأراجيفك! والوقت يمرُّ! ستتكلَّم! يجب أن تتكلَّم!

الفخراني: مستحيل! لن تتركنا هكذا! يجب أن تتكلَّم! لديَّ خمسة عيال! من سيُطعمهم! كلهم صغار! إذا كانت يد الله هي التي تضربنا، فهذا ظلم! ولكن الله ليس ظالمًا، لا أستطيع أن أُصدِّق نفسي!

الممثل: لا، أنا فاهم لعبتك! تُحاول أن تضللنا! تُحاول أن تُصوِّر لنا أن الله هو الذي جاء بنا إلى هنا! ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، فقد ترك الله لك حرية الاختيار! فسواء جاء بنا إلى هنا اللهُ أو القدرُ أو سوء الحظ فأنت حر في المفاضلة بيننا وبين بوليفار! أنت الذي تستطيع في نهاية الأمر أن تُخلِّصنا أو ترمي بنا في وجه بنادق الإسبان! لا داعي أن تُفهمنا أنك بتضحيتك بنا تُطيع أمرًا إلهيًّا! لسنا أطفالًا! لن تلهو! أنت تستطيع أن تختار ويجب أن تخضع لصوت العقل!

مونسيرا: أعرف ... أعرف أني أستطيع أن أختار وهذا أفظع ما في الأمر فأنا سأُقتل مهما كان اختياري ... ألا تدري أن هذه الحرية في الاختيار تُعذبني في هذه اللحظة أكثر من يقيني أني سأموت؟ ... ربما كانت هذه تجربة يمتحنني فيها الله؟

الممثل: فكِّر جيدًا! استمع لصوت العقل! إذا اخترت إنقاذ بوليفار فستقضي على ستة من الأبرياء! تذكَّر أني لست من المولدين. أنا إسباني! هذا ظلم!

مونسيرا (متألمًا): اغتيال ستة أبرياء! لكن هناك ملايين من الأبرياء الذين وضعوا أملهم في بوليفار.

الأم (تبكي وتتمتم): عندي طفلان.

(مونسيرا يُثبِّت نظره عليها، وينقبض.)

الممثل (يُلاحظ مونسيرا والأم، ونظراته تنتقل بينهما): اسمع! قد لا نستطيع أن نخضعك نحن! ولكن انظر إلى هذه المرأة، لديها طفلان أحدهما لا يزيد عمره عن عشرة شهور والآخر في الثانية، خرجت لتشتري الخبز، كانت لا تنوي الغياب أكثر من دقائق، تركتْهم وحدهم، والباب موصد عليهم، إنها أرملة، إني أعرفها، وبيتها منعزل، يجب أن تعود إلى بيتها. لا شكَّ أن حبك لصديقك شيء طيب، ولكنَّها هي أيضًا تُحب أولادها! يجب أن يعيش الأولاد! لا يُمكن أن تتركهم يموتون هكذا!

مونسيرا (متأثرًا ومبعدًا ناظرَيه): بعد معركة سيكيسيك كان ضباطنا يُجبرون الأسرى على قتل زوجاتهم وأبنائهم بأيديهم! والذين يرفضون ذلك يُدفنون أحياءً و...

الممثل (يُقاطعه): هذا فظيع حقًّا! وأفظع منه أن تترك طفلَين يموتان جوعًا وهما محبوسان وحدهما هناك في المنزل المنعزل.

مونسيرا (مستمرًّا في كلامه): وبعد معركة ميراندا بأيام جاءتني أوامر بإلقاء القبض على بوليفار. وقد وجدته وتكلَّمت معه طوال الليلة، إنه سيواصل الحرب من جديد!

الفخراني (في هلع): ستتركهم يذبحوننا.

مونسيرا: وسيُخلِّص هذا الشعب من أبشع أشكال العبودية!

الممثل: ولكن هذه المرأة! إنها أمامك هنا! وأبناؤها أبرياء! أ... ب... ر... ياء. أن تكون مع الشعب وأن تُحاول إنقاذ صديقك، هذا حسن، ولكن يجب أيضًا أن تُنقذ الطفلَين.

الأم (في حنان وهي تتقدَّم نحو مونسيرا): سيصحوان من النوم. بابليتو (Pablito) سيصرخ من الجوع!

الممثل: أولادها لم يفعلوا أي شيء، يجب أن تُفكِّر في ذلك أيضًا!

مونسيرا (يُخاطب نفسه): آلاف الأولاد، يولدون عبيدًا في هذه اللحظة في كل أنحاء هذا البلد.

الفخراني: ماذا يقول؟

الممثل (يائسًا): أنت تعرف أنه لن يتكلَّم.

التاجر (وقد خرج عن طوره): لن يتكلَّم؟ هذا وحش! مجرم! أبشع مائة مرة من الإسبان الآخرين! لا بد أن أخرج من هنا! لا بد أن تتكلَّم!

الممثل (يلهث من الفزع): لا فائدة! لن يتكلَّم. أنا لم أتآمر أبدًا، ظللت دائمًا مخلصًا للملك، زملائي في الفرقة يعرفون ذلك، اسألوهم، لا أريد أن أموت من أجل قضية لا أعتنقها.

هذا جنون سأقول ذلك للضابط! أنا إسباني مثله تمامًا. سيفهم وضعي! يجب أن يفهم وضعي!

التاجر: يا أحمق، لن يرغب في الفهم.

الممثل: لماذا تقول هذا؟ هه؟ لماذا؟

التاجر: أنت تعرف مثلي أنه يريد بالذات أبرياء! حتى يتكلَّم هذا المجرم! عقلي يكاد يطير! لا شكَّ أن زوجتي بدأت تقلق عليَّ! ولا أعرف حتى إذا كنت سأراها مرةً أخرى ... بسبب هذا الوغد!

الممثل (يُكلِّم نفسه)**:** يجب أن يفهم.

الفخراني: سنُعدَم كلنا!

التاجر: زوجتي تنتظرني. لو أني لم أتزوَّج لكان الأمر أهون. ولكنَّها في انتظاري. لا شكَّ أنها تقف الآن في النافذة. لم يمضِ عام بعدُ على زواجنا. هذا قليل جدًّا! عامٌ واحد من السعادة!

الفخراني: أنت وحدك، لا زوجة ولا أولاد ولا أسرة! لا شيء! أنت ترضى بالموت، ولكنِّي لديَّ خمسة عيال! تتكلَّم عن الآخرين. الملايين الآخرين ... أأنت مجنون! مالي أنا والآخرين؟ لو كان لديك خمسة عيال مثلي، خمسة عيال يجب أن تطعمهم وتكسوهم وتحميهم ... لما شغلت نفسك بهذه الملايين المجهولة ... التي تستطيع أن تُدافع عن نفسها.

الممثل: صديقك بوليفار نفسه، لو عرف أن حياتنا بل حياة وسعادة الذين نُحبهم تتوقَّف عليه، لسلَّم نفسه، أنا واثق من ذلك، لقد سمعت عنه يقولون إنه كريم، شجاع! لن يقبل أبدًا أن يُضحَّى بأطفال أبرياء من أجله.

مونسيرا (بصوتٍ خفيض)**:** بوليفار لم يعد من حقه تسليم نفسه.

الممثل: ماذا تقول؟

مونسيرا (يرفع صوته)**:** لم يعد بوليفار ملكًا لنفسه، إنه بكل كيانه ملك للقضية التي ثار من أجلها.

التاجر (يكاد يُجنُّ من الفزع)**:** آه! أنتم ترون جيدًا! ترون جيدًا أنه لا فائدة! لن يتكلَّم! سأفقأ عينَيه! سأنتزعهما! (ينقضُّ على مونسيرا، ويصفعه ثمَّ يُمسك بتلابيبه، ريكاردو يرمي بنفسه على التاجر ويُمسك به.)

ريكاردو: انتظر! انتظر!

التاجر (يُحاول أن يتخلَّص من ريكاردو)**:** الكلب! اتركني!

الممثل: دعه يتكلَّم.

التاجر: لا فائدة! كأنك تُكلِّم حائطًا!

ريكاردو (يُخاطب مونسيرا)**:** إني أكره الإسبان ... وأُدرك قيمة بوليفار. ولكن هل أنت متأكد من أنه سينضم إلى الأنصار في بويلبا؟

مونسيرا: لو أني لست واثقًا من ذلك فمن أين أستمدُّ كل هذه الشجاعة في هذه اللحظات؟

ريكاردو: نعم، ولكن ... أخشى أنه ...! لقد أعدموا والدي وأنا في الخامسة من عمري! وأشعلوا النار في المنزل، أمي وحدها ... سيكون الأمر ... صعبًا عليها ... هي أيضًا.

مونسيرا (بصوتٍ خفيض)**:** نعم.

ريكاردو: هل فكَّرت جيدًا أنت أيضًا؟ المسألة هي التضحية بستة أشخاص لإنقاذ رجل لديه مشروعات للمستقبل.

مونسيرا (متألمًا)**:** هذا صحيح.

ريكاردو: ست أرواح آدمية ستُزهق! ست أرواح بما تحمل من آمال وسعادة إنسانية زائلة! هل فكَّرت جيدًا؟ هذه المرأة وولداها المهدَّدان، هذا الرجل وزوجته التي يحبها أكثر مِمَّا يُحب نفسه، هذا الرجل الذي يعول خمسة أولادٍ صغار. كل هذا أمامك، حقيقي، من دم ولحم. والقضاء على بوليفار يعني أيضًا فتح أبوابٍ أخرى للشقاء وإنزال اليأس في نفوس الكثيرين، ولكنَّهم يتعقَّبون بوليفار، وهو مُعرَّض للقبض عليه في هذه الليلة بالذات، وهو مريض وقد يُداهِمه الموت في هذه الليلة، ومن قال لك إن العناية الإلهية ستسمح له بأداء الرسالة التي تُلقيها على عاتقه؟ ... فكِّر جيدًا. ست أرواح بشرية ستُزهَق بكل تأكيد في مقابل أعمالٍ مفترضة سيقوم بها رجل مريض ومطارد!

ريكاردو (مثقلًا)**:** أن أموت! نعم. ولكن أموت هكذا.

الفخراني: كفى أنتما الاثنين! الوقت يمرُّ بسرعة! أنت ترى جيدًا أنه لن يتكلَّم، هذا المجنون لن يلين أو يقتنع أبدًا!

ريكاردو: اسكت (كما لو كان يُخاطب نفسه) أنا أيضًا تُدوِّي في آذاني صرخات الذين ذُبحوا في سيكيسيك، وعندما أُغمض عينيَّ أجد صورة القتلى، محفورة تحت مقلتيَّ (ثم في صوتٍ متهدج) أنا أيضًا أحسُّ بازدراء الإسبان في كل مكان. ولكن أمي عجوز ووحيدة، بكت بما فيه الكفاية.

مونسيرا (بحماس)**:** هذه آخر فرصة، لو ضاعت، لو قُبض على بوليفار أو أخفق لَحلَّ الظلام الكامل إلى الأبد على ملايين وملايين من الرجال في أنحاء هذه القارة. يجب ألَّا

تضيع هذه الفرصة! يجب! لقد حسمت الأمر. أعتقد أني مُحِق ... أعتقد ذلك ... أودُّ أن أومن بذلك!

الفخراني: كفى، كفى، كل هذا هراء! هذا إجرام! كفى! سيقتلوننا! يجب أن يتكلَّم!

الأم (وقد أحسَّت بالخطر)**:** صحيح! الوقت يفوت! آه يا إلهي!

الممثل (بعصبية)**:** نعم يجب أن يتكلَّم! بسرعة وإلَّا ضعنا! ماذا نفعل؟ ما رأيكم أنتم؟

الأم (تُخاطب نفسها)**:** بابليتو استيقَظ، لا شكَّ أنه يصرخ الآن!

(تُخاطب مونسيرا) أتوسَّل إليك! انظر! اللبن ملء ثدييَّ! لا أستطيع أن أبقى هنا.

الممثل (وقد أوشك على البكاء)**:** يجب أن نعمل أي شيء! تصرَّفوا! كلِّموه!

التاجر (بحزم)**:** اسمع، أنا غني! أعطيك كل ما أملك، يُمكنك أن تواصل الحرب بأموالي، سينتهي بوليفار وتستطيع أن تواصل أنت، لديَّ مزارع وقطعان ماشية، سيُمكنك تسليح عددٍ كبير من الرجال ضد الإسبان، أقول لك هذا أمام شهود!

الفخراني: وافِق! وافق إذن! ستكون غنيًّا! أنت لا زلت شابًا! فيم يعنيك الآخرون؟ يُمكنك السفر إلى أوروبا! ستكون سيد حياتك بهذه الثروة. قل إنك توافق! ونحن شهود! لقد سمعنا جميعًا! لقد وعدك!

مونسيرا (ببساطة)**:** سواء وافقتُ على تسليم بوليفار أو لم أوافق، فلن يغفر لي الإسبان أبدًا.

الفخراني (وقد انتابه الخوف والغضب)**:** فلنقتله! فلنخنقه! لن يقول شيئًا ولكنَّه إذا مات فلن يجدوا ما يُطالبوننا به!

ساعدوني! يجب أن نقتله!

التاجر: يجب أن نقتله! معه حق!

(ينقضُّون على مونسيرا، معركةٌ قصيرة، الكراسي تقع.)

الممثل (يُحاول منعهم ويصيح فيهم)**:** لا! لا تفعلوا هذا! سيُعاقبوننا، سيعذبوننا! لا تفعلوا هذا!

(يتدخَّل ريكاردو هو أيضًا، صراخ، الأم وإيلينا تلتصقان وتتفرجان على المشاجرة في خوفٍ شديد.)

المشهد الثاني

(نفس الأشخاص ومعهم مورالس والجنود الذين نبَّههم الضجيج)

مورالس (واقفًا على عتبة الباب وبلهجة فيها تهديد)**:** اصمتوا! لا تتحرَّكوا! (يُخاطب الفخراني) أنت، اتركه! (الفخراني يبتعد عن مونسيرا ويتقدَّم مورالس ببطء داخل القاعة) ماذا حدث؟ ما هذا الصراخ؟ ... انطقوا! آه فهمت! ... هه! هل تكلَّم؟ هل حصلتم منه على شيء؟

الفخراني: لم يتكلَّم بعدُ! ولكن لا زال لدينا بعض الوقت يا حضرة الضابط! سنبذل كل جهودنا.

مورالس (بخشونة)**:** طبعًا، ولكن إيَّاكم من قتله، نحن نحتفظ لأنفسنا بهذه المتعة! أفهمتم؟

الفخراني: نعم، يا حضرة الضابط.

مورالس: يجب أن تتعجَّلوا، الوقت يجري! لم يعُد أمامكم الكثير! ألم تجدوا وسيلة تجعله يتكلَّم؟ الخيال يعوزكم! جسم الإنسان محشو بالأماكن الحساسة (يضحك) بدلًا من الدردشة معه، ضعوا مثلًا بطنه تحت رجل المنضدة واقفزوا كلكم عليها (الجنود يضحكون بصوت عالٍ) أو خذوا مثلًا كرسيًّا.

المشهد الثالث

(نفس الأشخاص ومعهم إزكويردو الذي دخل ببطء وهو يُدخن)

إزكويردو: كفى يا مورالس!

مورالس: كانوا على وشك قتله! هؤلاء المغفلون!

إزكويردو: نعم كفى! نستطيع أن نبدأ الآن.

الفخراني (مرتاعًا)**:** حضرة الضابط أعطيتنا ساعة.

إزكويردو (يهزُّ كتفيه)**:** هذا أكثر من اللازم، ثم إني أريد أن أُطبِّق أساليبي بكل دقة (صمت. ينظر إلى إيلينا) يا رب، إنها لَبديعة هذه الفتاة! لم ألاحظها من قبلُ! أين كانت عيناي؟ هذا ذنب لا يُغتفر! (يقترب منها وهو يبتسم) ما اسمك؟

إيلينا (في ألم): إيلينا.

إزكويردو: جميل جدًّا، إيلينا ... إيـ... ليـ... نا! هندية؟ أليس كذلك؟

إيلينا: أمي كانت هندية.

إزكويردو: بنت الحب ... لذا جئت جميلة لهذا الحد.

إيلينا: أمي كانت خادمة عند إسباني اعتدى عليها.

إزكويردو: يا بخت من أنجبك! والمجد لأمك التي جاءت بك إلى هذه الدنيا! كم عمرك أيتها الزهرة الصغيرة.

إيلينا: ثمانية عشر عامًا!

إزكويردو: عذراء؟

(إيلينا تخفض الرأس.)

إزكويردو (في سخريته المعتادة): كنزٌ رائع! أين كانت عيني من قبلُ؟ لا شكَّ أنها خطفت بصري ...! (مورالس والجنود يضحكون، يُخاطب إيلينا) لن تلقي مصيرهم بالطبع، ستكونين زوجتي الليلة، موافقة؟ ... (يُخاطب مورالس) يكفي إعدام خمسة.

الفخراني: يا حضرة الضابط، وعدتنا بساعة. أعطنا هذه الفرصة.

إزكويردو: اسكت، سأفعل ما يحلو لي. (يُخاطب إيلينا) لم تقولي لي، هل يروقك هذا؟

إيلينا (بصوتٍ خافت): أُريد أن أُعدَم مع الآخرين.

إزكويردو (مازحًا): يا لقسوتك! يا لقسوتك البديعة! يقترب منها ويربت على شعرها. (إيلينا شاحبة لا تتحرَّك) كم أحبك هكذا! ... شعرك جميل (يضع يده على صدرها، تتراجع) وصدرك بديع يا معبودتي إيلينا ... (يُخاطب مونسيرا بسخرية) وأنت، ألم ترقَّ لتوسلات مثل هذا الجمال؟ عيناها تُذيبان القلب! وصوتها أعذب من الموسيقى السماوية، ألم تهزَّ روحك؟ يا لقسوتك يا مونسيرا! قلبك قُدَّ من حجر!

مونسيرا (في ملل): لم تفتح فمها.

إزكويردو: هكذا! هه (صمت، ينظر لها في تمعُّن) أترضين بالموت، يا إيلينا، يا جميلة من أجل بوليفار هذا الذي لا تعرفينه؟

إيلينا (بعزم، رغم شحوبها الشديد): يجب إنقاذ بوليفار بأي ثمن. لديَّ أخوان مع الثوار في بويلبا.

إزكويردو (في انشراح): مورالس! إعجابي بها يزداد، ستتناول العشاء الليلة معي على انفراد! فليُعدُّوا مائدةً في غرفتي، ونبيذ مالاجا (Malaga) بالطبع (يُخاطب إيلينا) أُتحبين المالاجا أم تُفضِّلين نبيذ إكسيريس (Xeres)؟

إيلينا: أريد أن ألقى نفس مصير هؤلاء القوم.

إزكويردو (ضحوكًا): لا! لا! لا! ستكونين أول فتاة في هذا البلد أراها تُفضِّل ست رصاصات في الصدر بدلًا من ... (مورالس والجنود ينفجرون ضاحكين، إزكويردو يلتفت نحوهم) كفى!

(يُخاطب إيلينا) يا جميلتي، عندما تُشرِّف هندية مخدع أحد ضباط صاحب الجلالة يجب عليها أن تشكره بكل تواضع ... الحق أني لا أحب ألَّا يُرضيك هذا (يُخاطب مورالس) أمَّا هؤلاء فابدأ بمن تشاء منهم.

الفخراني: يا حضرة الضباط! ربما قبل ...

إزكويردو: يا فخراني! أنت دائمًا؟ خذه يا مورالس، ابدأ به؛ إنه يُضايقني ... إلى الحائط.

الفخراني (يكاد يُجنُّ): أقسم لك إني بريء! لم أفعل شيئًا!

إزكويردو (ساخرًا): أيها المغفل! تصوَّر أنك قُتلت في حادثة أو مرض مفاجئ، سيُعينك هذا!

الفخراني: لديَّ خمسة عيال يا حضرة الضابط.

إزكويردو: أتتصور يا عزيزي أنك ستخلد لأنك أنجبت خمسة أولاد من زوجتك؟

الفخراني (وقد أُسقط في يده): أي جريمة ارتكبت؟ ما ذنبي أنا؟ لم أقترف أي ذنب حتى تعدمني! يا حضرة الضابط، أقسم لك ...

إزكويردو: ضايقتني بما فيه الكفاية، أولًا ليس صحيحًا أنك يجب أن تقترف جريمة حتى تموت والدليل أمامك، وكم من شخص يموت هكذا بسبب المرض ومع ذلك لم يُفكِّر أي شخص في الاحتجاج على مشيئة الله ... الإنسان يرضخ وعليك أن ترضخ أنت أيضًا، ثانيًا أنت تعرف جيدًا أنه لا داعي لأن تثني عزمي أنا، أنت تعلم جيدًا أن حياتك تتوقَّف على كلمة من هذا الولد! إذن ... (يُخاطب مونسيرا) ألا تقول شيئًا؟ (يُخاطب مورالس) خذه.

الفخراني (يتخبَّط بين الجنود): لا! لا! أتوسَّل إليكم! أتوسَّل إليكم! استمعوا لي!

مورالس (بقسوة): كفى! امشِ يا حيوان!

(في هذه اللحظة يبدأ الممثل في البكاء.)

إزكويردو (يُكلِّم الفريق الخارج): انتظروا (يُكلِّم الفخراني) اسمع ... (صمت) حدَّثتَني منذ حين عن جرة تبكي. هل نجحت في محاكاة هذا (يُشير إلى الممثل).

الفخراني (تائهًا): نعم يا حضرة الضابط.

إزكويردو (بهدوء): لا شكَّ أن الأمر يتطلَّب منك كثيرًا من الصبر (سكوت).

الفخراني (يرتجف): نعم.

إزكويردو: أنت فنانٌ كبير، نعم أقول لك هذا بإخلاص! أنا مُعجب بك ومع ذلك أزدريك، وسأكون سعيدًا بإعدامك ... (مبتسمًا) لأني أرى أن استخدامك لآلام التعساء الذين حكمتُ عليهم بالإعدام، في صنع لعبتك البائسة، خسَّة ما بعدها خسَّة!

الفخراني (يُتمتم): يا حضرة الضابط ...

إزكويردو (ساخرًا): ولا كلمة! ... و... حاول أن تموت شجاعًا! ... (يُخاطب مورالس) مورالس!

مورالس يُشير إلى الجنود الذين يسحبون الفخراني. يُسمع الصراخ ثمَّ يخفت صوت دق الطبول خلف الحائط.

المشهد الرابع

(نفس الأشخاص ما عدا الرهينة الأولى)

الأم (تائهة): يا حضرة الضابط! الرحمة! اتركني أذهب! على الأقل أذهب أنا! لديَّ طفلان، الباب مُوصَد عليهما!

إزكويردو: اسكتي.

الأم: الرحمة! حرام عليك الأطفال! تركتهم وحدهم! الرحمة يا حضرة الضابط!

إزكويردو (بسخرية): مونسيرا! ما رأيك؟ ألا تُحركك هذه الضراعة؟ أهنئك! أعصابك من حديد، لا داعي أن نتعجب عندما يُقال عنَّا نحن الإسبان إننا لا نعرف الرحمة. هيَّا يا مونسيرا! حتى أنا تأثَّرت.

مونسيرا (بجهد): إزكويردو. كن رحيمًا ولو مرة في حياتك!

إزكويردو (يُثبت نظره عليه): يا سلام (يُخاطب مورالس) مورالس!

(خلف الحائط تتزايد سرعة دق الطبول مُعلنة قرب تنفيذ الإعدام في الرهينة الأولى.)

مورالس: أوامرك؟
إزكويردو (في هدوء): يا عزيزي مورالس، هذه المرأة لا تعدمها إلَّا في النهاية.

(ستار)

الفصل الثالث

المشهد الأول

(مونسيرا – إزكويردو – مورالس – الأب كورونيل –
الأم – إيلينا – الممثل – التاجر – رهبان وجنود)

(عندما يرتفع الستار يكون مونسيرا على اليمين معتمدًا على المنضدة، إزكويردو يجلس على كرسي بلا مسند في وسط المسرح.)

(جنود أمام الباب.)

إزكويردو: الفخراني البائس! ترك خمسة يتامى! ... ألا تقول شيئًا؟ ... (خلف الحائط تدق الطبول في خفوت كل آن وآخر) مونسيرا! أما تزال مقتنعًا بضرورة التضحية بهؤلاء القوم لتنقذ بوليفار؟ أواثق أنت أنك غير مخطئ؟ لو أنك أخطأت، ألن يكون هذا بشعًا؟ ... (صمت) طيب! مورالس! استأنف (يُخاطب مونسيرا) أعرف تمامًا أني لا أقل عنك عنادًا!

(الرهائن تنتحب، مورالس يتقدَّم نحوهم، الرهائن تتراجع وتلتصق بعضها ببعض، تبدو الحيرة على مورالس في اختيار الضحية، الكل يتفرَّس فيه، يُشير إلى التاجر.)

مورالس: أنت ... تقدَّم هنا!

التاجر: لماذا أنا؟

مورالس: قلت لك تقدَّم!

(أحد الجنود يدفع التاجر الذي ينتحب.)

التاجر (ينهار)**:** لا! مستحيل! ... مستحيل!

إزكويردو: لا تقل سخافات!

التاجر: أقول لكم هذا مستحيل! لا يُمكن أن أموت هكذا! (ينتحب وهو يفرك يدَيه بعصبيةٍ شديدة).

إزكويردو: مونسيرا! منظر الرجل الخائف من الموت ليس جميلًا. انظر إلى هذا البائس! لو أن صديقنا الفخراني لم يُعدَم لألهمه هذا الأنين وهذا الوجه في صُنع جرة من أجمل الجرار، ألا تعتقد ذلك؟

التاجر: أخلصت دائمًا للعرش. يُمكنكم أن تسألوا جيراني، اسألوهم! أكثر الناس في هذه المدينة يعرفونني! اسألوهم!

إزكويردو: قتلك إذن ظلم مزدوج؛ فأنت أولًا لم تفعل شيئًا، ثانيًا أنت مخلص لنا، أليس كذلك؟

التاجر (وقد أشرق لهذا الأمل المجنون)**:** نعم، يا حضرة الضابط.

إزكويردو (ساخرًا)**:** أتسمع يا مونسيرا؟ أمامك حالةٌ جديرة بالاهتمام. عليك أن تُفكِّر فيها بمزيد من العناية (يُخاطب التاجر) أنت تعرف جيدًا أنه يتعيَّن عليك إقناع شخصٍ آخر غيري، عليك أن تقنعه هو، أنا فاهم وضعك ومقدِّره تمامًا (يُخاطب مونسيرا) ألا تقول شيئًا؟ ألا تعنيك حياة تاجرٍ طيب؟

(يُخاطب التاجر) حظك سيئ للأسف! ألديك شيءٌ هامٌّ تُريد أن تقوله قبل أن تموت؟ حاول أن تجد ما تقوله! دافع عن نفسك!

التاجر (يتمتم)**:** يا حضرة الضابط ...

إزكويردو: ارفع صوتك حتى نسمع!

التاجر (بعد مجهود)**:** يا حضرة الضابط ... أنا ... أنا ... غني.

إزكويردو (مندهشًا)**:** ماذا إذن؟

التاجر: هل ... هل ... أستطيع ... أن أفتدي ... (يتوقَّف عن الكلام عندما يرى الابتسامة على وجه إزكويردو).

(إزكويردو يقوم ببطء دون أن يرفع عينَيه عن التاجر.)

إزكويردو: هل تسمعونه؟ أفهمتم؟ (يضحك) يعرض عليَّ ثروته في مقابل حياته ... ألا ترون أنه يجب أن يكون تاجرًا في الصميم حتى تخطر عليه مثل هذه الفكرة! (صمت) دعوني أُفكِّر قليلًا ... (يتصنَّع التفكير، فيعقد ذراعَيه وينظر إلى السقف) ن... ف... ك... ر، حياتك في نظري لا تعنيني إلَّا بقدر ما تنفع في الضغط على هذا العنيد، هذا يعني إنها لا تُساوي أي شيء على الإطلاق إذا كان استخدامها لا يدفع مونسيرا إلى الاعتراف. وعلى العكس فإني لا أستطيع أن أُقدِّرها بثمن لو افتداها هذا الولد بتسليمه بوليفار؛ فحرية بوليفار تُعرِّض للخطر سيطرةَ الملك على هذه القارة، كلمةٌ واحدة من مونسيرا، كلمةٌ واحدة فقط، تجعل حياتك (يقولها بخطابية) تُساوي كل الإمبراطورية الإسبانية بما في ذلك الهند الغربية! ... ولكن هل هذا صحيح؟ (يضحك، ثمَّ يعود إلى الجدية فجأة ويقترب من التاجر حتى يكاد يلمسه) ولكنَّك تريد أيُّها التاجر أن تُبادل كل هذا ... بـ... كم؟ ... بمنزلَين وألف ومائتَي رأس ماشية؟ أليس كذلك؟ أتريد أن تضحك عليَّ وتسخر مني! يا تاجر!

(التاجر يقول «لا» بحركة من رأسه، صمت.)

إزكويردو (يُفكِّر وهو يُداعب لحيته)**:** فكَّرت في الأمر ... لديَّ عرضٌ آخر أُقدِّمه لك، عرض أقل سخافة من ذلك الذي تجاسرتَ وقدَّمتَه لي ... لقد حدَّثتني عن زوجتك من قبل ... هي جميلةٌ جدًّا ... وأنت تحبها أليس كذلك؟

التاجر (في حالة هلع)**:** نعم.

إزكويردو (ببطء)**:** قلتَ أيضًا إنك تحبها أكثر من حياتك! أتذكر ذلك؟

التاجر: نعم.

إزكويردو (دون أن يرفع عينَيه عنه)**:** إذن، أؤَمِّن حياتك ... لو تركت لي زوجتك.

(صمت، إزكويردو يُراقب باهتمام وجه التاجر الذي راحت شفتاه ترتعشان.)

إزكويردو: هل فهمت جيدًا؟ إمَّا أن يُطلق عليك الرصاص بعد دقائق وإمَّا أن تُصبح حُرًّا إذا وافقت على قضاء زوجتك هذه الليلة في فراشي ... قرِّر بنفسك، هل تعطيها لي؟

(خلف الحائط، تدق الطبول في فتراتٍ متقاربة، التاجر تائه ويستمع لهذا الصوت في جزعٍ شديد.)

إزكويردو (بقسوة): هل تعطيها لي؟

(التاجر يفرك يدَيه ولا يُجيب.)

إزكويردو: أمامك ثلاث ثوانٍ تُقرِّر فيها ... (صمت) هل تعطيها لي؟
التاجر (في نفسٍ واحد): نعم.
إزكويردو (في ابتسامةٍ غير مريحة): أيها التاجر، يبدو لي الآن أني سأكون الخاسر إذا قبلت هذه الصفقة. كنتَ تُحاول أن تخدعني عندما حاولت أن تُصوِّر لي أن زوجتك لا تُقدَّر بثمن، وجوهرة لا نظير لها، وأنت الآن تتنازل لي عنها في مقابل حياتك بسهولة تجعلني أشك في الأمر.

(صمت، التاجر يخفض رأسه ويتنفَّس بصعوبة، ذراعاه ساقطتان لا يقوى على النطق.)

إزكويردو (يهز رأسه وبدون سخرية): كفى هزلًا! لقد خدعت نفسك ولم تخدعني، فحتى الآن كنت تظن صادقًا أن زوجتك أغلى عندك من الحياة، كنت تعيش على هذا الحب ولكنَّك كنت تتعذَّب منه أيضًا. كنت تخاف عليه طوال الليل والنهار، سعادتك وشقاءك، ولكنَّك استطعت بفضلي أنا وبفضل هذه الظروف، أن تُعيده إلى قدره الحقيقي، أعتقد أن من حقي أن أتوقَّع منك الشكر ... (يُخاطب مونسيرا) هيَّا يا مونسيرا، إليك الرجل! هل سترفع يدك من أجله. حياته أثمن من شرفه ومن حبه! وعليك أن تتصرَّف فيها! ألا تتكلَّم؟ أنت تتقزَّز من مثل هذه الصفقات (يُخاطب التاجر) إنه يرفض، ماذا تريد؟
سوء حظ ... وبالطبع سأرفض أنا أيضًا زوجتك، لا بد أن جمالها ليس بالقدر الذي تصورته!
التاجر: يا حضرة الضابط ...!

إزكويردو: لا تخشَ شيئًا! لن تُعدَم أرملتك فرسانًا جمالًا يسعدون بتخفيف مصابها فيك، متْ في اطمئنان! فلن تُعاني بقية حياتها من الحرمان!

التاجر (ثائرًا): وغد! وغد! (يهجم على إزكويردو ولكن الجنود يحولون دون ذلك ويجرونه وهو يصرخ، بينما يثبت إزكويردو نظره على مونسيرا).

المشهد الثاني

(نفس الأشخاص ما عدا التاجر وأحد الرهبان)

(يرتفع صوت دقات الطبول وتتزايد سرعتها. الكل ينصت. مونسيرا شاحب، يميل إلى الأمام.)

إزكويردو: مونسيرا! كلمة منك، ويُنقَذ هذا الرجل!

(مونسيرا يُغلق عينَيه ولا يُجيب.)

إزكويردو (بعد لحظة صمت): ... إنه ينزل السلالم ... يلف عند الناصية (صمت) هيَّا مونسيرا! إنهم يعصبون عينَيه، هل ستتركه يموت مثل الفخراني المسكين؟ (صمت) إنه يقف أمام فرقة التنفيذ ... الجنود تستعد (مونسيرا يعضُّ على قبضتَيه، وفي نفس اللحظة يُسمع صوت الطلقات تتلوها الطلقة القاضية).

إزكويردو: فات الأوان.

(الأم والممثل ينتحبان، الطبول تكف عن الدق ولكنَّها تعود من جديد في صوتٍ خافت، كما حدث من قبل.)

إزكويردو: سنرى إذا كنَّا أسعد حظًا مع التالي (يتفرَّس في الرهائن الواحدة بعد الأخرى، الكل مطأطئ الرأس) أنت يا سالسيدو! تعال!

الممثل (يبكي ويتهته): لماذا ... أنا؟!

إزكويردو (في سخرية): بالترتيب ألا يجدي مثلًا ... لماذا تكون أنت الأخير. أتظن أن مونسيرا سيلين قبل أن تموتوا جميعًا ... أليس كذلك؟

الممثل: أتوسَّل إليك.

إزكويردو (بلهجةٍ جافة): لا تتوسَّل إليَّ، عليك أن تجعله يلين. أنا معتمد على مواهبك في التمثيل ... لقد تأثرت بك في لاجوايرا (Laguayara) عندما أدَّيت دور أسكازيو (Ascasio) وهو على حافة المشنقة، ما دمت أثَّرت عليَّ وأنت تُمثِّل شخصيةً وهمية في مواجهة موتٍ وهمي فكيف لا تُؤثِّر الليلة على مونسيرا وأنت، أنت حقًّا ستموت بالفعل، هيَّا، نحن نستمع إليك!

الممثل (باكيًا): لا ... لا ... تقتلوني ... لا ... أستطيع.

إزكويردو: لن يلين قلب هذا الولد بهذه الطريقة، أردت أن ألفت نظرك فقط.

(صمت، الممثل يبكي ورأسه مطأطئ.)

إزكويردو (كأنه يُخاطب نفسه): دموعٌ حقيقية، كان أسكازيو يبكي هو أيضًا، كانت دموعه حقيقية أيضًا، مع أنه كان فوق منصة أمام ديكورٍ تافه، ومع ذلك فقد انطلى عليَّ التمثيل حتى لم أعد أدري أأنت الذي تبكي أم أسكازيو ... يا لك من ممثلٍ عظيم يا سالسيدو. كنت تتقمَّص بصدق روح أسكازيو القوية الأبية! ولكنَّه كان يبكي أصدقاءه الذين فقدهم، ولا يبكي نفسه ... في هذه الليلة أعرته أنت جسمك وصوتك ووجهك ... وكان حيًّا. ولكنَّه لا يُعيرك هو الآن شجاعته. وها أنت ذا تنتحب وترتجف من الخوف ... (صمت، ثم في لهجةٍ قاسية) أريد منك أن تُعيد على مسامعنا كلمات أسكازيو على حافة المشنقة وهو يُخاطِب أعداءه، هيَّا بسرعة ... قلها بشكلٍ مناسب وإلَّا سلَّمتك لجلادنا جارسيا الذي سيُسعده أن يُطلعك على أشياءَ مختلفة من بينها نزع الأظافر بالكلَّابة ... أفهمت؟ (يُخاطب الجنود) اسكتوا أنتم! أفسحوا له المكان! ... إنها قطعةٌ أدبية أريد أن تتذوقوها، استفيدوا من الفرصة (يُخاطب سالسيدو) هيَّا الكل يستمع!

(تبدر من الممثل إشارة تعني أنه لا يستطيع، إزكويردو يقطب جبينه ويقول في لهجةٍ قاسية):

إزكويردو: آمرك بتلاوة كلمات أسكازيو الأخيرة. أتسمع؟ أدِّ عملك! انسَ نفسك، انسَنا! انسَ كل شيء خلاف أسكازيو وهو على وشك الموت.

الممثل (وقد تشجَّع بأملٍ باهت، يتلو بلهجةٍ رتيبة): «أيها الموت! جاء انتصارك! هذه الليلة يحتويني جناحاك، لقد اقتربت مني في عشرين معركة ووقفت بجانبي منصتًا أمينًا! ...»

إزكويردو: نعم، نعم، لا داعي لهذه المقدمات، انتقل فورًا إلى نهاية خطابه وهو يتوجَّه إلى أعدائه!

الممثل (مطيعًا)**:** أمَّا أنتم يا أبناء قشتالة، أنا لا أحقد عليكم لأن الله يدعوني، وعليَّ أن أمْثُل بين يديه وقلبي خالٍ من كل دنس! لا أحقد عليكم ما دام «المنقذ» يأمرنا بالغفران كما غفر لنا من قبلُ! إني أستمدُّ من حبي الكبير لله، القوة حتى لا ألعنكم وأحتفظ لروحي بالصفاء الكامل! آه! لم أواجه في حياتي معركة أمَرَّ من هذه! هذا يومي وتلك ساعتي! يا ربي القدير أنت تراني وتقرأ في نفسي.

إزكويردو (يُقاطعه فجأة)**:** كفى! (يُخاطب الجنود) أليس رائعًا؟ هذا الرجل كان على وشك الموت وهو يثق في الله ويغفر لجلاديه! (يُخاطب سالسيدو) لقد أدَّيت الدور ببراعة يا سالسيدو، الحق أنك استطعت بفضلي أن تُواجه الموت وتحتفظ للحظاتٍ معدودة برجولة وكرم روح أسكازيو!

الممثل (ثائرًا)**:** أيها القذر! أنت قذر!

إزكويردو (في تسامح)**:** لَكَم تحقد عليَّ يا سالسيدو، ونظراتك أيضًا تطفح بالحقد! ولكن فكِّر فيما كنت تقول! أو بالأحرى فيما كان يقول أسكازيو «يجب أن أصعد إلى الله وقلبي بريء من أي دنس!» ... الله يأمر بأن نموت دون أن نلعن وأن نغفر لجلَّادينا!

(يُخاطب مونسيرا) هيَّا يا مونسيرا! كلمة منك وتصون للفن الدرامي إحدى مواهبه الفذة! لن تتركه يموت هكذا، إنه فنانٌ عظيم! ومسيحيٌّ طيب! وإسبانيٌّ مخلص لوطنه! الإسباني الوحيد من بين هؤلاء المولَّدين والهنود! أتظل صامتًا؟ سكوتك قاتل حقًّا!

(الطبول لم تكف عن الدق بصوتٍ خافت كما سبق، الممثل يكاد يُغشى عليه فيتعلَّق بذراع الأب كورونيل.)

الممثل (يبكي)**:** يا أبتي، يا أبتي! مستحيل! تدخَّل من أجلي، لا أريد أن أُقتل، الرحمة يا أبتي!

إزكويردو (بقسوة)**:** كفى! يا سالسيدو! أنت إسباني! لا تنسَ ذلك! وتذكَّر أيضًا أنك لن تُنقذ أبدًا إن لم يتكلَّم مونسيرا! لا داعي لأن تتعلَّق برقبة الأب كورونيل أو تتوسَّل أو تبكي! الفخراني والتاجر كانا لا يُمثِّلان أمَّا أنت فتستطيع أن تُخفي عواطفك الحقيقية وتظهر عكسها، لقد تقمَّصتَ على خشبة المسرح شخصياتٍ أنبل منك. حافظ على كرامتك!

(الممثل يترك ذراع الأب كورونيل، يشدُّ قامته ويمر بيديه على جبينه ويتقدَّم ليقف بنفسه بين الجنود، يخرج الأب كورونيل وراءه ويظل الباب مفتوحًا.)

المشهد الثالث

(نفس الأشخاص ما عدا الممثل والأب كورونيل)

إزكويردو (يُمسك مونسيرا من ذراعه ويجذبه إلى وسط المسرح، ثم يُمسكه من قفاه ليُجبره على النظر إلى الخارج): مونسيرا! لا زال هناك متسع من الوقت! لم يدوروا بعدُ عند الناصية. انظر هناك على الرصيف. الفخراني وسالاس إينا العظيم مكوَّمين على الأرض، شاحبين لقد جرجروهما حتى هناك. سالاس إينا الذي كان في غاية السعادة. لم يكن ينقصه شيء! انظر إليه الآن وقد تحطَّم صدره!

مونسيرا (يتخلَّص منه): دعني.

(يرفع إزكويردو يده ليصفعه ولكن الطبول تدق بسرعة فيُفاجَأ بصوت طلقات النار، ينزل ذراعه ويهزُّ كتفَيه. تُسمَع الطلقة الأخيرة، إزكويردو يروح ويجيء ويبدو منشغلًا عندما يدخل الأب كورونيل.)

المشهد الرابع

(نفس الأشخاص ومعهم الأب كورونيل)

إزكويردو: أهذا أنت يا أبتي؟ كيف مات؟ هل بكى أم ظلَّ جامدًا أم بائسًا؟

الأب كورونيل: مات في نُبل وهدوء وفي راحة.

إزكويردو: حسنًا! لقد اختار إذن دور أسكازيو. لقد فقدنا ممثلًا عظيمًا! كان يخاف الموت، فيا لها من موهبة ومن شجاعة احتاج لها لكي يُمثِّل الشجاعة! لا أستطيع أن أُقدِّم أجمل من هذا الثناء على ممثل.

الأب كورونيل (في عصبية): أعفِنا من حفل تأبينه.

إزكويردو: لنواصل عملنا إذن، لم ينجح ممثلٌ محترف من طراز جوان سالسيدو في تحريك قلب مونسيرا، أخشى أن يموت كل هؤلاء القوم رغم إرادتهم من أجل الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية؛ فالمبادئ العظيمة تُشبه الكوارث الكبرى؛ فهي تستهلك عددًا

كبيرًا من المخلوقات؛ هيَّا لنرى من عليه الدور. (يخاطب ريكاردو) وأنت يا فتى ألا تقول شيئًا لصديقك مونسيرا؟ هل ترضى بالموت دون محاولة لإقناعه؟ (ريكاردو يبقى مطأطئ الرأس بإصرار) ما اسمك؟

ريكاردو: ريكاردو.

إزكويردو: أنت شجاع يا ريكاردو، أنا أحب الشجاعة. وأحسُّ برغبة في تجربة شجاعتك (ريكاردو ينظر إليه) نعم، جلسةٌ قصيرة في قبو جلادنا الموهوب! ما رأيك؟ لا تظن أنه مجرَّد حاتي حقير يشوي أصابع الأقدام! إنه فنانٌ حقيقي يُحب فنَّه! خبير في استخدام الكلَّابات! وهو ليس أميًّا! إنه يدرس علم التشريح حتى يتفوَّق في مجاله! ... تكلَّم إذن!

ريكاردو (يقف جامدًا ويقول بصوتٍ مختنق): بوليفار سينتقم لنا.

إزكويردو: شيءٌ جميل! سيدبُّ فيك العفن وأنت داخل القبر بعد أن يجري عليك صديقنا جارسيا تجارب التشريح الحي! وهل أنت واثق أن بوليفار سينتقم لك؟

ريكاردو: نعم.

إزكويردو: هل قال لك هذا مونسيرا؟

ريكاردو: نعم.

إزكويردو: هل اعترف لك أن بوليفار حاول الإبحار إلى كوراساو؟

ريكاردو: لن يذهب بوليفار إلى كوراساو!

إزكويردو: يا مونسيرا، قل له بنفسك محتوى الخطاب الذي وُجِد بين أوراق بوليفار بعد فراره من بورتو-كابالو (Puerto-Caballo)! لقد قرأته يا مونسيرا ... هيَّا سأُحرِّك ذاكرتك! في هذا الخطاب يطلب بوليفار من الحاكم الإنجليزي في كوراساو التصريح له بالالتجاء إلى الجزيرة! أهذا صحيح أم لا؟

مونسيرا (وقد فاض به الكيل): لم يُرسل هذا الخطاب أبدًا!

إزكويردو: كانت لديه النية.

مونسيرا: ماذا تعني؟ الكل يعرف أن بوليفار ليس جبانًا! وأنت نفسك تعرف ذلك! وإنه قدَّم لك ألف برهان على نيته في الكفاح ضدنا حتى الموت!

إزكويردو: ولكن احتمال السفر إلى كوراساو لا زال قائمًا، وهذا الخطاب يُؤكِّد ذلك! يا ريكاردو يا صغيري.

مونسيرا (في حماس): لا! هذا الخطاب لا يدل على شيء! حقًّا إن بوليفار فكَّر في الهرب إلى كوراساو بعد هزيمته حتى لا يقع بين أيديكم. ولكنَّه أُخبر في الوقت المناسب

بوجود منطقة بويلبا المتمردة. وعندما عرف ذلك، اتجه إلى هناك ليلحق بأصدقائه مع أنه مريض، بلا سلاح وبلا أمل في الحصول على أي إمدادات! لقد اجتاز منطقتنا هذه وهو يعرف المخاطر التي يتعرَّض لها، وقد كُلِّفت بالقبض عليه، رأيته وكلَّمته! إنه على حق. وإذا لم يُقبض على بوليفار هذه الليلة فسيكون مع رجاله في ليلتنا هذه بالذات! أنا مُتأكِّد من ذلك تأكُّدي من أني سأموت!

ريكاردو (في صوتٍ حزين)**:** أصدقك يا مونسيرا!

إزكويردو: أيُّها الأحمق! لقد قالها لك بنفسه: إذا لم يُقبض عليه! لنفرض أننا استطعنا أن نقبض عليه؟ ستضحي إذن بحياتك من أجل لا شيء!

ريكاردو (في صوتٍ حزين)**:** لقد قتل الإسبانيون ... أبي وأنا لا زلت طفلًا ...

إزكويردو: ليس هذا مُبرِّرًا لكي تموت اليوم.

(ريكاردو يطأطئ رأسه، إزكويردو ينظر إليه ويغمز بعينَيه.)

إزكويردو: حسنًا، أعتقد أنه لا داعي لإطالة الجلسة! ما دمت توافق على الموت على أمل تحقيق بوليفار لأهدافه! أنت على الأقل تعرف لماذا تموت ... أليس كذلك؟

ريكاردو (يرفع رأسه ويواجهه)**:** أعرف (يخفض رأسه من جديد).

إزكويردو (في ابتسامةٍ متسامحة)**:** يا ولد ... تذكَّر أنه كان يُمكن أن تموت غرقًا أو يتهدَّم عليك سقف أو تتسمَّم من أكل عيش الغراب، وعندئذٍ لن تدرك شيئًا! هنا على الأقل أنت تعرف لماذا تموت! ويبدو لي أن هذا يهمك! (يُخاطب مورالس) يا مورالس، خذ هذا البطل! منظر البطل يُحزنني دائمًا، لا أحب أن يجد الناس مبرِّرًا لموتهم.

(يمسك الجنود بريكاردو، الطبول تُدق بقوة، وعندما يصل ريكاردو إلى عتبة الباب يلتفت إلى مونسيرا ويقول له ببساطةٍ شديدة: «أنا معك»، يُغلَق الباب خلف مورالس.)

المشهد الخامس

(إزكويردو – مونسيرا – الأم – إيلينا – الأب كورونيل – جنود)

مونسيرا (في اضطرابٍ شديد)**:** أوقفوا هذه الجرائم، لا يُمكن أن يستمر هذا! إزكويردو! يداك مخضَّبتان بالدم! إزكويردو! ستُسأل أمام الله عن كل هذا الدم!

إزكويردو (في برود): كلمة منك وريكاردو يعود.

مونسيرا (يُمسِك برأسه بين يدَيه): أنت بعيد عن الله يا إزكويردو، ستلجأ إليه في يوم من الأيام ولكن سيحول بينك وبينه بحر من الدم وأنهار من الدموع! ستموت بائسًا! ستكون نهايتك مريعة!

إزكويردو (بنفس البرود): هذا الكلام لا يُنقذ ريكاردو.

مونسيرا (في صوتٍ أجشَّ وضارع): فكِّر في نفسك يا إزكويردو! فكِّر فيما ينتظرك! فكِّر في الله الذي ستُواجهه!

إزكويردو: المدهش أنك لم تقل شيئًا في صالح الرهائن الثلاث الأُول! بينما تتضرَّع فجأة وتسبُّني بل وتتوعَّدني بالويل والثبور من أجل ريكاردو! لماذا؟

مونسيرا (منطلقًا): إنه شاب يا إزكويردو! لم يعش بما فيه الكفاية، اعفُ عنه.

إزكويردو: أنت تزيد دهشتي! أوافقك على أن موت ريكاردو الذي يبلغ العشرين يؤثر عليك أكثر من موت الفخراني مثلًا الذي يناهز الخمسين! أليس كذلك؟ ... هذا يعني أنك تُفضِّل إنقاذ الناس حسب ما يتبقى لهم من أيام يعيشونها! الحق أن اختيارك فيه جانبٌ حسابي!

(صمت، الطبول تواصل الدق. يبدو أن مونسيرا ينصت إليها أكثر من استماعه لكلام إزكويردو.)

إزكويردو: الواقع أنك كنت تستطيع أن تختار وفقًا لقيمٍ أخرى! مثلًا: الأفضل أن تُنقذ حياة سالسيدو، الممثل الموهوب! وحياة سالاس إينا التاجر الغني والزوج السعيد! لا! لم تسعَ من أجل أسعدهم ولا أكثرهم ثقافة، بل سعيت من أجل أصغرهم! وهو بالذات الوحيد الذي رضي بمصيره، الوحيد الذي يرى أن الموت اليوم يُفيد قضية أثمن من حياته.

مونسيرا: يا إزكويردو إنه طفل تقريبًا!

إزكويردو: نعم. ولكن هذا النوع من الأطفال يعرف كيف يستخدم البنادق! (صمت) على كلٍّ، هناك نقطة ضعف في اختيارك، لو أني عفوت عن ريكاردو فليس هناك ما يُثبت لي أنه لن يموت بعد ذلك بثلاث دقائق تحت عجلات عربة أو أنه لن تقضي عليه حُمَّى خبيثة! أنت تريد أن تنقذ ريكاردو بالذات لأنه الوحيد من بين زملائه ... الذي يأمل في الحياة عددًا أكبر من السنوات!

كما أنك تريد أن تنقذ بوليفار على أمل تخليصه لهذه البلاد من سيطرتنا! الأمل! الأمل! ألا يوجد في رأسك سواه!

(يُسمع صوت طلقات النار، ثمَّ الطلقة القاضية، مونسيرا يطأطئ رأسه ويضغط على قبضتَيه.)

إزكويردو: ألا يزال الأمل يحدوك بعد هذه الطلقات (صمت) سأستخدم منطقك يا مونسيرا! أنت تعطف على الشباب (يُخاطب إيلينا) أنت يا جميلتي لم يأتِ دورك بعدُ! لا زلت آمل أن تفقدي عذريتك هذه الليلة! وبما أني الزوج السعيد فسأقوم بمُحاولةٍ أخيرة لإنقاذك. (يُخاطب الأب كورونيل) هل ترضى يا أبتي أن تكون الأخيرة؟ (الأم تنتحب، الأب كورونيل يتجه إليها ويُمسك يدَيها.)

المشهد السادس

(نفس الأشخاص ومعهم مورالس)

إزكويردو: آه! أنت يا مورالس! كيف كان موقفه؟

مورالس: مات شُجاعًا، رفض تعصيب عينَيه ولكني جعلته مع ذلك يُواجه الحائط، وفي اللحظة التي أمرت فيها بإطلاق النار صاح: «عاشت ...» لا أدري ماذا. لم يفهم أحد ما قال. على كلٍّ لا شكَّ أنها عاشت الحرية أو عاشت الثورة.

إزكويردو (مبتسمًا): عاشت لا أدري ماذا؟ ... أنت تعبث يا مورالس!

مورالس (ممتعضًا): وكان يُعطينا ظهره! و...

إزكويردو: حسنًا، حسنًا (يُخاطب مونسيرا) أأنت سعيد؟ لقد مات عزيزك ريكاردو نصيرًا جديرًا ببوليفار، صغيرًا أليس كذلك؟! ولكن الدور الآن على هذه المرأة! ولا تنسَ أن لديها طفلَين محبوسَين في منزلها، إذا ماتت ماتَا من الجوع! موتًا بطيئًا فظيعًا، طفلان أمامهما حياةٌ طويلة لا تقلُّ عن ستين عامًا! ما رأيك؟ أمامهم فرصٌ كبيرة حسب نظامك في التقدير! (يُكلِّم الأم) استعدي يا امرأة! جاءت ساعتك!

الأم (تتخلَّص من الأب كورونيل وتُخاطب إزكويردو): لا. لا. اتركني أذهب! الرحمة! لديَّ طفلان صغيران! البيت مقفل عليهما! لو كان عليَّ أن أموت من أجلهما لرضيت عن طِيب خاطر! أقسم لكم لكنت سعيدة! (تبكي.)

إزكويردو: يا مجنونة! عليكِ أن تستعطفيه هو! لماذا تتوجَّهين إليَّ؟

الأم (تتجه نحو مونسيرا): يجب أن تفهم! ألا تستحق حياة طفلَين صغيرَين كل التضحيات؟ ... إنهما وحيدان! لا يُمكنك أن تتركهما للموت هكذا! ما أبشع أن تترك طفلًا يموت! فكِّر إذن! إنهما صغيران! لا يطلبان إلَّا الحياة!

(تبدر من إزكويردو إشارة إلى مونسيرا تعني «أنت ترى جيدًا».)

أنا لا أُدافع عن نفسي ولكن عنهما! لا يُمكن أن تقتل طفلَين هكذا (تبكي ورأسها مطأطئ، وذراعاها ساقطتان. يبدو على مونسيرا التأثُّر الشديد. تُدق الطبول في الخارج بإيقاعٍ بطيء).

الأم: استمع إليَّ! انظر إليَّ! انظر إلى دموعي! أيُمكن أن يظل قلب الإنسان جامدًا أمام يأس أم؟ أمٌّ تعرف أنها ستموت وأن طفليها سيُلاقيان ميتةً رهيبة! ألم ترفع أبدًا طفلًا بين يديك؟ ألم يَمسَّك سحر الطفولة أبدًا؟ آه لو رأيت صغيرَيَّ! لما قسوت! إنهما يفيضان بالبشر والحياة! أيدي بابليتو صغيرة وجسمه رقيق (تقترب من مونسيرا، تستعطفه بحنان) هذه ساعة تغذية أصغرهما. إنه يبكي الآن في مهده، انظر إلى ثديي، إنه يُناديني بتحريك ذراعَيه الصغيرَين! وأنا هنا واللبن يفور في صدري! أيُمكن أن تقتل أُمًّا ترضع؟ (مونسيرا يجذبها نحو كتفه وهو شديد الشحوب، تقول الأم) لقد خلقهما الله! أتستطيع أن تقتل مخلوقات الله؟ قل لي؟ هل تؤمن بالله؟ أنت تعرف أنك لا يُمكنك أن تتركهما يموتان! ليس هذا من حقك! أنت تطعن الله!

(مونسيرا يرفع يده.)

إزكويردو (تمرُّ ثوانٍ من الصمت الرهيب. ثمَّ يستأنف مونسيرا كلامه بجهدٍ كبير وصوتٍ أجش)**:** المنزل منعزل ويبعد ٥٠٠ متر عن الطريق الذي يؤدي إلى ...

إيلينا (تصرخ)**:** لا! اسكت! (صمت، ثم في صوتٍ أهدأ) تشجَّع إذن، فات أوان الخيانة! لقد ضحَّيت بأربعة منَّا! فات الأوان! اسكت!

الأب كورونيل (ثائرًا)**:** الكلبة! خذوها! تعجَّلوا (يُخاطب إزكويردو) ألم يكن من الأفضل أن تُقتَل من قبل! هذا خطؤك! (يُخاطب الجنود) هيَّا!

(الجنود ينقضُّون على إيلينا ويجرُّونها، وعندما تمر أمام إزكويردو، ينظر إليها الأخير بعينَين متوقدتَين ويجذبها بعنف إلى صدره ويُقبِّلها، إيلينا تُدافع عن نفسها بصعوبة ويتركها إزكويردو، الأب كورونيل يُشير إلى الجنود، يتعجَّلهم، مونسيرا يقف على قدمَين في الجانب الآخر من الغرفة، ونتبيَّن أنه يتمالك نفسه من جديد.)

المشهد السابع

(مونسيرا – إزكويردو – مورالس – الأب كورونيل – الأم – جنود)

(تدق الطبول بقوة عندما تخرج إيلينا من الباب. الأم تندفع نحو إزكويردو.)

الأم: لا! لا! كفى! كفى! لا تقتلوها! سيتكلَّم (إلى الأب كورونيل) إنه طيب، سترون أنه سيتكلَّم.

(إلى إزكويردو) سيقول كل ما تريدون، انتظروا قليلًا.

(إلى مونسيرا) ستتكلَّم، أليس كذلك! أنت لا تريد أن يقتلوا إيلينا، ولا تريد أن يقتلوني، أليس كذلك؟ يُمكنك أن تقول للجنود أن ينتظروا! أن ينتظروا قليلًا! يا لقسوة الرجال! ما أسهل القتل عندكم! ألا تدرون؟! ألا تدرون؟!

إزكويردو (يُخاطب مونسيرا)**:** أضمن لك حياتك إذا تكلَّمت! قل كلمةً واحدة! ارفع يدك وأنا آمر بنفسي بوقف التنفيذ! أسرع! وسأضمن لك أيضًا حياة بوليفار! سننفيه، هذا كل ما في الأمر! ستُنفيان كلاكما إلى أفريقيا! أتعهَّد لك بذلك! سأحصل من صاحب السعادة ...

الأب كورونيل: إزكويردو!

إزكويردو (يُمسك بتلابيب مونسيرا ويهزُّه بعنف)**:** تكلَّم يا مُغفَّل! قل كلمة! صمتك مقيت! أودُّ أن أسحق بقدمي هذا الرأس الذي تغوص فيه الكلمات مثل الرصاص في اللحم الميت!

(صوت طلقات التنفيذ. الطبول تكف عن الدق. إزكويردو يصفع مونسيرا، ثمَّ يتركه ليعود إلى وسط المسرح.)

الأم (وقد جُنَّت من اليأس)**:** عليكم اللعنة، عليكم اللعنة جميعًا! عليكم لعنة الله يا سفَّاحين! يا جُبناء! ألف مرة جبناء! (ترتمي على المائدة وهي تصرخ، الأب كورونيل يحنو عليها ويُكلِّمها بصوتٍ خافت وجسمها ينتفض من البكاء الحار.)

إزكويردو (وقد فاض به الكيل)**:** خلصوني من هذه المجنونة! خذوها! أسرعوا! (يُخاطب مونسيرا) لن تُحنن قلبك، أليس كذلك؟ لا داعي لإضاعة الوقت! انتهى الأمر! (يُكلِّم الجنود) أسرعوا! اخرجوا كلكم، كلكم!

الأم (تُقاوم الجنود وهي تصرخ): لا! لا! لا أريد! لا تقتلوني! لا تقتلوني! لديَّ طفلان! طفلان صغيران! لا أريد!

(الأب كورونيل يخرج معها، مورالس يتبعهما ويقول لجنديَّين «احرسوا الباب.»)

المشهد الثامن

(مونسيرا – إزكويردو)

(الطبول تُدق من جديد إيذانًا بإعدام الأم. مونسيرا لا يزال متكئًا على المائدة وذقنه على صدره، إزكويردو يُحاول استنفاذ كل سخطه بالسير جيئة وذهابًا.)

إزكويردو (بعد لحظات من الصمت): لولا الأب كورونيل لاستطعت أن أحتفظ بها! أجمل فتاة قابلتها في حياتي! هذه النظرة! هذا القوام! وأنت يا مُغفَّل! ألم تكن تستطيع ... (يهزُّ كتفَيه، صمت، دق الطبول يزداد بسرعة) أتثق حقًّا في بوليفار إلى هذه الدرجة؟ أتعتقد فعلًا أن الحرية ضرورية لبضعة آلاف من الهنود الأغبياء والزنوج القذرين؟ ماذا يفعلون بهذه الحرية؟ مائة ألف منهم لا يُساوون شعرة من رأس إيلينا! (في ثورة) ولكنَّنا لم نُنهِ حسابنا معًا! (صمت، إزكويردو يهزُّ كتفَيه عند استماعه لصوت إطلاق البنادق) ستة أبرياء قتلوا، أليس كذلك؟ (الطلقة القاضية، صمتٌ مطلق، إزكويردو يتَّجه نحو مونسيرا) قل لي ... (مونسيرا شاحب الوجه ويبذل مجهودًا ليقف على قدمَيه) كنت أعتقد أن حياة الإنسان مُقدَّسة بالنسبة للمسيحي وأن حرية عدة ملايين من الرجال لا يُمكن بأي حال من الأحوال أن تفضل على مصير مخلوقٍ واحد من مخلوقات الله ... (صمت) لا شك أنك سويت أمورك مع ضميرك.

مونسيرا (يبذل مجهودًا ملحوظًا لكن لا يخور): لا شأن لك بما كلَّفني ذلك من عناء! ... يستطيع المرء أن يُضحِّي بأكثر من حياته من أجل تحرير شعب يُحبه ويتعذَّب.

إزكويردو: بشرفه العسكري مثلًا.

مونسيرا: نعم، وبأكثر من شرفه وبأكثر من حياته!

إزكويردو (ساخرًا): بحياة ستة أبرياء ومعهم حياته الأخيرة!

مونسيرا (بمرارة): أنا أعرف أنك لا تخشى الله!

إزكويردو (في هدوء): لا.

مونسيرا (في حماس): ولهذا فأنت أقسى وأحقر مَن رأيت في الوجود!

إزكويردو: إن قتل آلاف المخلوقات، التي صنعها الله من العدم ويُعيدها من جديد إلى العدم، مُحاولة لأن نُصبح نحن أيضًا آلهة! إنها منافسة على أي حال من الأحوال، ولكن لماذا ألوم نفسي على ذلك؟ إني أقتل الناس لكي أُحافظ على مصالح صاحب الجلالة الكاثوليكية التي أدين لها بالولاء والطاعة التامة ... وفي نفس هذه اللحظات يموت في كل بقاع الأرض آلاف الأبرياء، بلا مبررٍ معقول من جراء الحوادث أو الأمراض! أيؤثر هذا عليك كثيرًا؟ لا!

مونسيرا: أنت تكفر! أنت لا تحترم شيئًا!

إزكويردو: على العكس، أنا أحترم الله! لقد اخترع لنا، وهو الخالد، شيئًا عبقريًّا (كما لو كان يُذيع له سرًّا) الزمن! (يروح ويجيء على خشبة المسرح)، ثمَّ يقول: أنا لم أنسَ نفسي يا صغيري! كل ما في الأمر أني سمحت لنفسي ببضع دقائق أثرثر فيها معك، ولكنِّي سأستدعي بعد ذلك مورالس لكي يُحضر لنا ست رهائنَ جديدة!

مونسيرا (ينتفض ثمَّ يقول في هلع): لماذا؟ أنت تعرف أن كل شيء انتهى! وأني أعطيت كل ما في وسعي! وأن لا شيء سيزحزحني عن موقفي! لا داعي لهذه الجرائم الجديدة! فكِّر في الأمر!

إزكويردو (مبتسمًا): عليك أنت أن تُفكِّر ... لقد أثبتَّ لي أنك تستطيع أن تدوس على ضميرك وأن تُضحِّي بست أرواح خلقها الله في مقابل ما تُسمِّيه مصلحة عدة ملايين من أبناء فنزويلا! أليس كذلك؟

مونسيرا (في صوتٍ خفيض): نعم.

إزكويردو: في الحقيقة، أنت قتلت ستة أبرياء دون أن يؤدي موتهم إلى تحرير الملايين من مواطنيهم! لقد ضحَّيت بهم من أجل أمل في التحرير، من أجل مجرد احتمال! ... ألا تجد ذلك بشعًا؟ وبعد ذلك تتهمني بالقسوة والوحشية! أنا ... (يضحك، ويسير جيئة وذهابًا ثمَّ يقف فجأة أمام مونسيرا) أمَّا أنا فضابط في الجيش الملكي! ولديَّ أوامر بالمحافظة بأي ثمن على سلطة صاحب الجلالة على هذا البلد، وكل أبناء فنزويلا الذين يثورون على هذه السلطة مجرمون، أنا لا أؤدي إلَّا واجبي ... أنا لست قاسيًا يا مونسيرا. بل واجبي هو القاسي (يضحك).

مونسيرا (في حماس): والذين عذَّبتهم حتى الموت! والذين قتلتهم بنشر سيقانهم أو صب الرصاص المصهور في أحشائهم! هل كان واجبك يُملي عليك هذه الأعمال الوحشية؟

إزكويردو (ساخرًا): بالطبع! هنا أيضًا أخدم صاحب الجلالة بهذا التعذيب والتنكيل الذي يُرهب الآخرين ويدفعهم إلى الإخلاد للسكينة.

مونسيرا (ثائرًا): أنت مجنون! هذا التفكير لا يُمكن أن يصدر إلَّا من مخيلة مجنون أو سادي.

إزكويردو (مازحًا): أبدًا أبدًا! أنا على العكس صافي النفس! كُفَّ عن سبِّي (يقف أمام مونسيرا) أنا واثق أني أخدم الملك بقتلي هذه الرهائن! قضية الملك تعلو على كل شيء، لا أشعر أبدًا بأي وخز في الضمير، اللهم إلَّا بالنسبة لإيلينا، الأمر بالنسبة لك مختلف. لو أن مصلحة الملايين من أبناء فنزويلا تعلو على أي شيء لكنت محقًّا ولوَجَبت التضحية بحياة ستة من مواطنيهم، ولكن بوليفار مريض، ومن الممكن في هذه الليلة أن تُودي به الحمى التي أُصيبَ بها، ولكن بوليفار مُطارد ويُحتمَل أن يُقبَض عليه الليلة، وحتى إذا وصل إلى بويلبا ولحق بأنصاره فإنه لا يضمن الانتصار علينا، فإذا مات بوليفار إذن أو قُبض عليه أو هُزم فلن تكون فعلتك سوى مهزلةٍ دامية!

مونسيرا: أنا فاهم يا إزكويردو، لقد فكَّرتُ في ذلك منذ وقتٍ قريب وأنا في ظروف تختلف تمامًا، لقد تنازعتني كل هذه الأفكار بقسوة لا أستطيع أن أصفها ولكن ريكاردو صرخ في وجهك: يجب أن ننقذ هذا الأمل بأي ثمن لأنه الأمل الأخير، هذه البلاد غارقة في البشاعة، وقد جثم عليها ليلٌ كئيب منذ احتللناها، ليل يمطر الدم والدموع. أصبحت أستطيع أن أقسو على قلبي وأخنق روحي وأدوس على ضميري لمجرد أمل في انتهاء هذا الليل وبزوغ شمس النهار.

إزكويردو: هذا لا يُمثِّل رأي أغلب الرهائن التي أُعدِمت، كانوا كلهم تقريبًا مقتنعين أنهم اغتيلوا بلا داعٍ! ماذا تريد؟ أغلب الناس بلا كرامة ويوافقون على الحياة العفنة تحت سيطرتنا بدلًا من الموت، يُفضِّلون أن يعيشوا أذلاء تحت أقدامنا على أن يموتوا كِرامًا من أجل الحرية.

مونسيرا: أنت تُفكِّر في إيلينا وريكاردو!

إزكويردو (بدقة): قلت: «أغلب الرهائن ...»

مونسيرا: لقد وافقتْ رهينتان من ستة على الموت من أجل هذا الأمل الذي تزدريه، لو احتفظنا بهذه النسبة على نطاق سُكَّان البلد بأسره لكان هذا يعني أن مليونين من سُكَّان هذا البلد الذي يبلغ تعداده ٦ ملايين نسمة، يقبل هذه الميتة؟ ألا يبدو لك هذا رائعًا! هائلًا!

إزكويردو (يتظاهر بالتفكير ثمَّ يُمثِّل): مليونين؟ (لحظة صمت) لا ... هذا ليس هائلًا! أؤكد لك أني أحسُّ نفسي قادرًا على إبادة هذين المليونَين من أبناء فنزويلا، المسألة

مسألة وقت وصبر ليس إلَّا، يجب أن يوفروا لي ما يكفي من الحبال حتى أقتصد في طلقات الرصاص. لا توجد أي صعوبة سوى هذا الجانب فقط، الحق أني لا أرى غيرها ... كما أني أقترح عليك أيضًا الأكواخ الخشبية التي يُمكن إقامتها بسهولة لشيٍّ حوالي ١٥٠ شخصًا دفعةً واحدة!

مونسيرا: وغد!

إزكويردو: لو كُلِّفت شخصيًّا بسحق التمرد، لاتخذت لنفسي منهجًا في العمل، البند الأول والأخير: «بإعدام كل فنزويلي ذكر من سن الثانية عشرة حتى الخمسين» ثمَّ أُطبِّق هذا القرار حرفيًّا ... ولكنَّك تعرف أن صاحب السعادة مُتسامح جدًّا.

مونسيرا (منزعجًا)**:** من أين ينبع حقدك هذا الذي يجعلك بهذه الوحشية؟

إزكويردو: ستثير والله غروري ... (يتجه نحو الباب ويصيح في الجنود) قولوا لمورالس أن يحضر!

مونسيرا (وقد أحسَّ بالخطر)**:** إزكويردو!

إزكويردو: لا، هذه المرة لن أمنحهم سوى نصف ساعة. الوقت يمر أرجو أن يكون من بينهم أُمًّا أخرى لها أولادٌ صغار.

مونسيرا: لن تفعل ذلك! لن أستطيع! لن أستطيع!

إزكويردو (يقترب منه ويقول له بقسوة)**:** وإذا لم تحثَّك الرهائن الجديدة على الكلام سأعدمهم أمام عينَيك، ثم أحضر ستةً آخرين، ثم ستة آخرين وغيرهم ... وغيرهم حتى تُدرك أخيرًا مدى جنونك!

مونسيرا (لاهثًا)**:** لن أستطيع! لن أستطيع!

(يجفف عرقه على وجهه ورقبته بشكلٍ مستمر، إزكويردو يُثبِّت نظره عليه وهو بالقرب منه حتى يكاد يلمسه، ويقول إزكويردو بصوتٍ هادئ بعد لحظة صمت.)

إزكويردو: أهو مُسلَّح؟

مونسيرا (مستسلمًا)**:** نعم.

إزكويردو: أهو وحده؟

مونسيرا (يُحاول أن يمنع نفسه): معه ثلاثة هنود.

إزكويردو: هل هم مسلحون؟

مونسيرا: نعم.

إزكويردو (بعد لحظة صمت يهزُّ رأسه ويقول): قل لي، لقد حدَّثتني عن منزلٍ منعزل.

مونسيرا (متردِّدًا): نعم.

إزكويردو: هل توجد أشجار ... أعشاب؟ هه؟ أم أرض جرداء؟

مونسيرا (مُرغَمًا): أرضٌ جرداء.

إزكويردو: أرضٌ جرداء، حسنًا ... وهي على بعد ٥٠٠ متر من الطريق؟ أي طريق؟ طريق تولولاك؟

لا شكَّ في ذلك.

(مونسيرا يرفع رأسه في بطء وينظر لإزكويردو دون أن ينطق.)

إزكويردو: هيَّا قل لي أي طريق؟ لماذا تسكت الآن بعد أن قلت الكثير وإن كان لا يكفي! هه! أي طريق؟

(مونسيرا يستعيد وضعه المستسلم.)

إزكويردو (مُلحًّا): مورالس قادم، تعجَّل وإلا فات الأوان، كل الذين سيحضرونهم هنا لن يخرجوا أبدًا.

(مونسيرا يثبت نظره عليه، صمت.)

المشهد التاسع

(مونسيرا – إزكويردو – مورالس – جنود)

مورالس (يدخل ثائرًا ويصيح): أجاءك الخبر؟ بوليفار تعدَّى سانتا مونيكا (Santa Monica)!

إزكويردو (يندفع نحوه ويُمسك كتفيه): ماذا تقول؟

مورالس: في الظهيرة اكتشف ريرو (Riero) وفرسانه بالمصادفة المزرعة التي أخفى فيها (مُشيرًا إلى مونسيرا) هذا الكلب بوليفار. ولكن بوليفار كان قد فرَّ منذ ساعة، وقد تعقَّبه ريرو ولحق به في طريق سانت مونيكا.

إزكويردو (يهزُّه في غضب): ماذا بعد؟

مورالس (يُحاول أن يتخلَّص كأنه يُريد أن ينقضَّ على مونسيرا): كل هذا بسبب هذا الخائن! ريرو مات ومعه اثنان من فرسانه! بسبب هذه الجثة العفنة.

إزكويردو (يُمسك به): اهدأ! تكلَّم! تكلَّم إذن!

مورالس (وهو يلهث): كان بوليفار في حراسة عشرين رجلًا مُسلَّحًا من فلَّاحي بويلبا، كان هذا الوغد قد بعث هناك أيضًا برسول! وقد هاجمهم ريرو، ولكن بسبعة رجال في مقابل عشرين! قتل منَّا ثلاثة! أمَّا الذين ظلُّوا على قيد الحياة فجاءوا هنا! سيجعلونه يدفع الثمن غاليًا. (يُحاول أن يتخلَّص من قبضة إزكويردو لكي ينقض على مونسيرا) هذا الكلب اللقيط، لو أنه في هذا الصباح ... (يتوقَّف عن الكلام، جلبة في الخارج ودقات طبول بعيدة، مورالس ينتبه) ها هم آتون! إنهم يجتازون الميدان!

(يظل الرجال الثلاثة جامدين في مكانهم وعيونهم مُركَّزة على الباب، الجلبة تزداد وتقترب.)

إزكويردو (يُخاطب مونسيرا بصوتٍ خافت دون أن يلتفت إليه): هنيئًا لك ... خذ حظك من الفرح ... لأنك لن تنتصر طويلًا.

مونسيرا (يرد عليه هو أيضًا دون أن يُبعد نظره عن الباب، يتكلَّم بسرعة وبصوتٍ أجشَّ): أنا لا أخشى مِمَّا سيحدث لي ... بقدر ما كنت أخشى أن أتحمَّل مرةً أخرى ما مررت به من قبلُ!

إزكويردو (بنفس الطريقة السابقة): أنت تتكلَّم عمَّا لا تعرف، نحن نترك البعض يصرخون طوال الليل وهم مُعلَّقون من إبطهم في الخطاطيف.

مونسيرا: سيُعينني الله مهما حدث!

(الجلبة تزداد.)

إزكويردو: ستجد نفسك وحيدًا مثل الرهائن الستة ومثل كل مَن يحتضرون في هذه اللحظة في كل بقاع العالم.

(الجلبة قريبة جدًّا ومصحوبة بدقات طبول قوية.)

مونسيرا (في حماس): أنت تُحاول عبثًا أن تحملني على اليأس، إني أسمع الآن الأنصار في بويلبا يصيحون من السعادة عند دخول بوليفار! أسمعهم يُهللون له وأرى الرايات والزهور في النوافذ! الأمل يشرق وكل الرجال يشرعون أسلحتهم! أسمع صيحات الفرح! كل الأجراس تدق. كل النساء يصحن في سعادة!

إزكويردو (في اللحظة التي يُفتح فيها الباب بعنف): كل شيء قد انتهى يا مونسيرا.

مونسيرا (يصيح): لا! كل شيء يبدأ.

(يندفع الرجال المسلحون وهم يلهثون من الغضب ومعهم أنتونانزس وزوازولا والجنود الأربعة. الفرسان التابعون لفصيلة رييرو. الكل يُمسك في يده بسيف أو مسدس. يدخل من بعدهم الأب كورونيل في هدوء.)

المشهد العاشر

(مونسيرا – مورالس – إزكويردو – الأب كورونيل – أنتونانزس – زوازولا – جنود)

أنتونانزس (ينقضُّ على مونسيرا وهو يصرخ): ها هو! ها هو الخائن الذي سهَّل طريق الهرب لبوليفار! (ينزع شاراته) أيها الكلب القذر! أنت غير جدير بهذا الزي! أنت تدنسه!

زوازولا: رييرو مات بسبب ابن الزانية هذا! انظروا، انظروا إلى وجه هذا المرتد!

الجنود: الموت له! الموت له!

أنتونانزس (يضرب مونسيرا): هيَّا يا ملعون! ستدفع الثمن!

زوازولا (يدفع هو أيضًا مونسيرا): كنَّا سنقبض عليه هذا الصباح لولا خيانتك! أنت تستحق أن تُعذَّب ثلاثة أيام متوالية!

الجنود: الموت له!

(يدفعونه بعنف ليقضوا عليه على درج القصر، يسمع صوت طلقات النار من خلال دقات الطبول والسباب.)

(إزكويردو، الأب كورونيل.)

الأب كورونيل (بعد عودة الهدوء): فيما كان يُحدِّثك في اللحظات الأخيرة؟ هل أعلن التوبة؟

إزكويردو (يتفرَّس فيه وتبدر منه ابتسامةٌ غريبة): لا، كان يُكلِّمني عن أفراح الآخرين.

(ستار)

هنـــداوي